



عمرو علي العادلي

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم



دار اكتب للنشر والتوزيع

الزيارة

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

عمرو علي العادلي

رواية

تصميم الغلاف أحمد مراد

رقم الإيداع - 2014/1810

I.S.B.N: 978-977-488-264-8

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف 01147633268 - 01110622103

E – mail : daroktab1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2014م

جميع الحقوق محفوظة ©

دار اكتب للنشر والتوزيع

الزيارة

ما حدث لـ عمر سعيد إبراهيم

عمرو علي العادلي

رواية



دار الكتب للنشر والتوزيع

إلى الدكتور على فرغلي

تكفي صداقتك عن نصف العالم

"أود من قرائي أن يسترخوا

أن يتابعوا القصّة

دون حاجة إلى كتابة الملاحظات

أو حفظ الأسماء والتواريخ

فإنني أعدهم بصدق.

لن أختبرهم فيما قرأوه"

إي إتش جومبريتش

مؤرخ ومفكر إنجليزي

القسم الأول

البوابة

(1)

قالت أمى إن أبى يرقد هنا.

لم يعد يفصلنى عن المبنى إلا عبور الشارع، ما أن لمست قدمى الأرض حتى داهمتنى همّة مفاجئة لعبور البوابة. كانت بعض أشجار قليلة تنحني فوق حديدها وتُكوّن معبرا للسيارات والناس، تبدو المساحات المظللة مضيئة بشكل ما، الشمس تتخلل الأغصان والأوراق، تصنع نوافذ صغيرة يُرَقَط ضوءها الطريق الأسفلتى تحت قدمى. جئت إلى هنا وكلّى حيوية وأمل فى التعرف على أبى، قالت أمى أيضا إنه شخص فى الخمسين ويُدعى سعيد إبراهيم.

بالأمس، كانت أمى تحتضر، راحت فيما يشبه الغيوبة، اللحظات التى تسبق الموت ليس من الضروري أن تكون هامة، عند توهان العينين وارتجافة البدن، تخرج الحروف مبتورة لا تُفضى إلى كلمات، ولا يُفهم منها قصد، لكن على العكس من ذلك كانت أمى؛ تكلّمت كلاما مكتملا ومفهوما، بل واسترسلت فى سرد الحكايات واحدة تلو الأخرى، حتى ظننت أنها أبدا لن تموت، استحالت فى هذا الوضع لمادة خام يمكنها وحدها أن تغزل العالم فى ثوب جديد.

غابت أمى فى وجد من الصعب أن تصفه الكلمات، كانت كأنها تصطاد كائنات من أعماق محيط، ذهبت لمسافات بعيدة لم يرتدها أحد

من قبل، طالبت الفترة الزمنية بين الغرغرة وما اعتقدت بأنه طلوع الروح، تباطأ الكيان الشفاف عديم الوزن حتى يعطى فريسته الفرصة كاملة لتقول ما تريد، وأن تعترف بما حدث بالفعل، فلا وقت لديها لتصويب الأخطاء فيما التقطته آذاننا، كانت في وضع يصعب فيه الكذب، لا ترانا بشكل كامل، أنا وجدتي، ربما كنا بالنسبة لها أشباحا تتجول حولها بلا صفة، ولا أبعاد، فقط كانت منشغلة بما تود أن تنقله إلينا بأقصى سرعة ممكنة.

في هذه الأثناء، كنتُ مفتونا بتجربة الاحتضار، أتابع تطوراتها من بعيد، نسيتُ لثوان أتى أقف أمام أقرب المخلوقات، للحظات، عاتبتُ نفسي على ذلك، كنتُ أراها -بعيدا عن أمي- كأنها يعاقر من أجل بقاء قبس منه في أدمغة الآخرين، تنقل الرسالة لأشخاص الفضل منها حالا، أو بالأدق، سيقون بعدها ولو قليلا من الوقت.

جلستُ جدتي على حافة السرير، رفعت ذراع أمي الهامدة في تقليد ساذج لحركة الأطباء عند اختبار الوفاة، فحركتُ أمي أصابعها ببطء. كانت تصرفات جدتي متناسبة مع شخصيتها تماما، فقد تخطت الثمانين وأصبحت تجد مَنْ يُبَرِّر ويدافع عن كل ما تفعله. دارت حول سرير أمي، هزتُ العمود الحديد كما لو كانت تقف تحت ثخلة وتنتظر سقوط الرطب، دبّتْ همة مفاجئة في حركتها، وكأنها فرحانة بالحالة التي وصلت إليها ابنتها.

بالأمس، حين تركتُ أمي، تركتُ معها بيتنا القديم، ونحوّل هذا الأمس إلى ذكرى طويلة تبتلع كل ما فات وتعيد تشكيله من جديد،

ذكرى قادرة وحدها على إنعاش الأحداث ورسم المشاهد ونثر الروائح على الأماكن والناس، حتى تعطى انطبعا، ولو زائفا، بأن كل ما حدث يمكنه الحدوث مرة أخرى، برغم تشوشه في دهاليز دماغى، كفيلم لم يكتمل تحميصه.

عندما أصبحت أُمى تائهة بين الذكريات وشطحات الخيال أكدت لى أن حالة أبى تسوء يوما بعد يوم، وعلى أن أُلحق به فى آخر أنفاسه، نصحتنى بأن أزوره وأتعرّف إليه قبل فوات الأوان، حتى ولو لم يتعرّف هو علىّ.

لم تُذكر سيرة أبى كثيرا أمامى، لا يهم ذلك، فسيرته لا تعنى لى الكثير على أية حال، وكلمة "بابا" مفتقدة من قاموسى اللغوى منذ وعيت، لم أره ولو لمرة واحدة، ولا حتى عن طريق الصور، لم يكن له فى بيتنا أثر يذكر، أصبح بالنسبة لى كائنا متوقّعا، يمكن أن يصبح وحشا كاسرا، ويمكن أيضا أن يكون فراشة رقيقة.

كنتُ متلهّفا لرؤية شخص أُنمى إليه ولم أره أبدا، كانت أُمى تقول "إن الجائع لا يدقق كثيرا فى الطعام"، وأقول على نفس القياس "إن المتلهّف لا يدقق كثيرا فى أسباب لهفته"

اسمى المكتوب فى البطاقة "عمر سعيد إبراهيم"، كان سعيد إبراهيم تكويننا خالصا لصالح الحكايات، لذلك يجب علىّ أن أجمعه من الخيال، أتوقّعه، ولكنتى فشلت فى توفيق ملائحه من الشتات كل مرة. على أية حال، أنا لا أؤمن بأن الأب يشارك الأم فى الإنجاب، ولكنه فقط

يُسَلِّمُهَا المفتاح لتكون أما، ثم ينصرف لحاله، وتفتح هي الباب بعد ذلك وتُشكِّل وحدها ابن حياقتها.

قبل أن تموت أُمِّي أعطتني ساعة، قالت إن أبي ورثها عن الأسلاف، وككل الأشياء المتوارثة، كانت تحمل قيمة إضافية لكونها مجرد ساعة، لها ميناء باهت ومرقّط، كما لو أصابه البرص، تتشجّع عقاربها أثناء الدوران، ولها أستيكَ معدني مُقسَّم لخلقات مفصلية على شكل جلد ثعبان، لا حجر بطارية يُحرِّك تروسها، ولا شحن بلف زمبرك، كانت تعمل بنبض القلب. قالت أُمِّي وهي تمسكها بالساعة:

"خذ. طالما قلبك ينبض ستظل تدور. لا تُفرط فيها مهما كان الثمن"

ربما أن الساعة في نظري لم تكن تساوي أي ثمن فلم أُعقِّب على كلامها، أدخلتُ كفي في الأستيكَ وأغلقتُها على معصمي. ربما ستعيني عقاربها المعوجة على رحلتي القادمة. لم أكن قد سمعت من قبل عن ساعة تعمل بنبض القلب، احتفظتُ بشيء آخر لم تعطه أُمِّي لي، صورتها، كارت أبيض وأسود في حجم الكف. كانت ملامحها المتبسمة هي مؤونتي الحقيقية التي أعانتي على خوض مغامرة الحجى إلى هنا.

كنتُ أدقق النظر في ملابسي بين الحين والآخر، قميصي الكتان اللبني له زراير مربّعة شفافة، وبنطلوني الجبردين بكسرتين متساويتين وكُبشة داخلية، لايد كُبشة، وجيوبه معمولة من قماش ثقيل مخصوص. عند زيارة أبي، لم آخذ معي علبة شيكولاتة ولا كيس

لأفكها، لكنني اشتريت بروازا فيه لوحة لفلاحة تحمل فوق رأسها "بلاصا"، فقد كانت لأمي روح قتيّة تحس بالأشياء، وترى عروفا خفية في الجمادات يتدفق الدم من خلالها، وكانت أيضا ترسم الحناء وتغني المواويل وتدق الطبل، وبما أن الطيور على أشكالها تقع، فلا بد سيكون أبي على نحوٍ ولو قليلٍ من ذلك.

كان مجرد تصوّري بأن لي أبا يُشعل بداخلي شحنة من الشجون، لبّت أبي أولا في الداخل، ثم كل ما تلى ذلك شكّله الخيال. بدأت رحلتي وأنا أحمل في يدي رواية لم تكتمل، وفوق كتفي تستقر حمالة شنترة خفيفة فيها مستلزمات يوم واحد، حذائي الرياضي وبنتطلون الجير أيضا، كانا يدعمان الإبحاء بالحويّة وتدفق روح الشباب في حركتي وتصرفاتي، حرصتُ على أن أبدو لأبي شابا جاء ليتحمّل المسؤولية كاملة أثناء مرض أبيه، كانت ملامح الناس من حولي شاردة بشكل ما، للحظة خاطفة، رأيتُ نفسي منتما لجنس أرقى منهم جميعا، كأنهم أسلاف وأنا النسخة الحديثة من نسلهم، لم أتوقّف أمام هذا التصوّر كثيرا، تجاوزته لأنه تشكّل في لحظة غرور عارضة، تحطّيته لأرى بشكل أوضح الناس والأشياء من حولي. خلف البوابة يقف رجال أمن عابسون، يلبسون قمصانا بلون السماء وبناطيل بزرقة كالنيلة، حليقو الذقون خفيفو الشعر، يتلفّتون وهم يبحثون عن سلطة يفرضونها على أي كائن، ينظرون في تصريح الزيارة مرات وكأنهم وكلاء نيابة يفحصون أدلة جريمة.

اجتزّت البوابة بدون استفسارات، في يدي تصريح الزيارة المختوم، دخلتُ وشحنة نشاط متجاذبي، بعد أن عبرتُ ردهة طويلة انتظرت أمام مصعد عطلان، لم أتوقّف أمامه كثيرا، صعدتُ السلام

وملامح أبي المتخيَّلة تتمثل أمامي بأطياف متنوعة. يأتيني في الأحلام على عكس الصورة الخرافية التي ثبَّتْها في عقلي، كان يقف باهت الهيئة صموتا، عابس الملامح ولا يجيد إلا إلقاء الإرشادات والأوامر، ثم ينصرف، ولكنتي لا أثق في الخيالات التي تتشكَّل عند بوابة الأحلام، لذا، أطلقت العنان لخيالي كي أتقبَّل أبي على أية هيئة.

لقد جئتُ إلى هنا بدافع وصية واضحة لا لبس فيها، قالت لي أُمِّي وهي تحتضر، بينما أرسم أنا على أصداف البحر:

"لم يعد لأبيك غيرك. اذهب إليه وودِّه"

وقالت أيضا، إن أبي كان له أصدقاء كثيرون منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان مكتمل الصحة والبنيان، أما بعد العطب المتوالى لأجهزته التي تتفاعل مع الحياة فقد تبخَّر أصحابه المزعمومون، وأصبح عليَّ أن أزوره ربما لأساعده على الاحتضار هو الآخر، ولكنتي لا أعرف طبيعة حالته بالضبط، ولماذا يرقد في المستشفى؟

تسرَّبت روائح مختلطة تزيد من سخونة الجو، تصبَّبت عرقا برائحة البيتادين ومواد التعقيم وعينات الدم، واستمعتُ لآهات من كل شكل ولون؟ ولكن كل ذلك يهون ما دُمْتُ ساجس بجوار رجل قالت أُمِّي إنه واضع بذرتي، أيام أن كان باستطاعته نشر البذور

سألتُ عنه ممرضة بدينة تدفع "تروللي" صغيرا معبأ بالأدوية والشاش فقالت: مؤكَّد أنه يرقد في العنبر الأكبر بقسم الرجال، وقالت أيضا إن بالعنبر ثمانية أسرة وثمانية مرضى بأوجاع مختلفة وقصص متنوعة.

في الدور الرابع تلتصق نوافذ العنبر بمئذنة مسجد صغير، ولا يقف على بابه أحد، بعد قليل خرج رجل قصير من العنبر، كان يلبس عفرية ميكانيكي متسخة، عليها من الخلف "بادج" متهتك وحروفه تائهة في لُطع الشحم، اقترب منى ورفع رأسه عاليا حتى يراى، ثم سأل:

- هل تبحث عن أحد؟

- أبحث عن أبي.

قلتُ، فضحك القصير، اهتز خرطوم قسطرة في يده الصغيرة، جلس على منضدة طويلة خشبها مخدحل فجلستُ بجواره، وضع الخرطوم على كتفه كالحبل وقال:

- معك سيجارة؟

بعد أن دخنا السيجارتين وضحت ملامح القصير أكثر، كانت له عين مفنجلة وعين مواربة بما حُول. ولم يرد.

جاء الكلام بعضه مع الدخان، نعست سيجارته بين أصابعه وتنهَّد، وعرفت أن اسمه حسن، لم يزد على ذلك، عندما أردتُ الاستفسار عن باقى اسمه صمت قليلا ثم رد:

- أنا معروف في المستشفى بالكامل. يكفي أن تقول حسن. اطمئن. لا يوجد هنا حسن غيرى.

لم أطمئن، ولم أكمل معه الحديث، نزلت من على المنضدة وذهب حسن لحاله، كرهت منضدته عندما عرفت أنه سحباها من مدرج تعليمي، وأن هذه الطاولة الكبيرة كانت مخصصة لتشريح جث من قضا في العنابر، أو هلكوا في غرف العمليات.

ابتعدتُ عن هذا الغريب الأخول، بحثتُ عن مكان للجلوس، "حصيرة الصيف واسعة" كانت أمي تقول دائما.

لم أعر على أي معلومات عن أبي حتى الآن. حاولت تفحص الزلاء بتر، رأيتُ مرضى عاجزين عن ترك أسرهم، أو حتى تغيير وضع رقدتهم. لمحتُ حسن بجوار الشباك يحاول إغلاق ضلفته قليلا، ثم نظر إلى وابسم، رمى عُقب السيارة بعد ما سحب منها النفس الأخير وشفط جزءا من الفلتر.

أكملت بحشي في الملامح، ربما أجد عينين يطل منهما بريق يشبهني، كانت أعين الراقدين متعبة ومنتفخة من تكرار النعاس، يلتصقون بأسرهم كأنهم أصبحوا جزءا منها، يتأوهون كلهم باستثناء شخص واحد، رجل له بشرة شاحبة، بلون الصوف الطبيعي، يكبس في رأسه زعبويا مقلما من القطن، يندفس ولا تظهر منه إلا عينان صغيرتان، يتوسطهما أنف كبير نسبيا. لا يمكنني تخيله أبي، حاولت الانتقاء قدر استطاعتي، كنتُ أجنح لأختار الصنف الممتاز، فعندما يكون لدينا الاختيار نرى دائما أننا نستحق الأفضل.

سمعتُ حسن من خلفي، كان صوته قد حفر طريقه التدريجي للتمييز في أذني:

- هل تعرف أى شيء عن أبيك؟

- كل ما أعرفه أن اسمه سعيد إبراهيم.

أجته وأنا أتخيل بيننا حواراً مطوّلاً، ولكن حسن انصرف ليُكمل نقل مستلزمات طبية إلى العنبر، لم يكن توقفي عند حسن بسبب قصره وحَوَله وردوده المقتضبة فقط، ولكنه كان يتعامل كمرمّض وهو يلبس زياً غير رسمي، وغير نظيف، لم يكن أحد يعترض على ذلك، ليس هذا فحسب، ولكنه أيضاً لم يكن يلتفت للأطباء، ولم يتحدث كذلك إلى عمّال النظافة أو الأمن، باختصار، كان يمر أمامي كطيف مرسوم على الجدران، لا يسأله أحد عن شيء، يبدو أنه كان يملك سطوة ما.

سمعتُ سائق الميكروباص قبل وصولي إلى هنا يتحدث عن أشياء غريبة تحدث في المستشفى، وعلى غير ما رأيت بعيني، قال إنه مستشفى نظيف لأن الحراس الجدد تولوا أمره منذ شهرين تقريباً، لم أتوقف عند كلماته ولم أستفسر عما يقصده بكلمة "الحراس" لم تكن الكلمة بلا معنى، إذ كان في استيعابها مشكلة بسبب وفرة المعاني المفسرة لها.

تسلل شجر باسق السيقان تطل أوراقه عبر النوافذ، حامت أسراب طيور صغيرة سوداء حول مبنى المستشفى وهي تصيح بصوت

عال لا يناسب طيوراً بريئة ترفرف في السماء. كانت الحرارة شديدة والهواء متوقّف عن العمل، وحسن يهش عن وجهه الذباب ويُرَوّح كفه بلا جدوى.

لمدّة طويلة احتفظتُ بصورة لأُمّي في خيالي، حاولتُ كثيراً أن احتفظ لأُمّي بصورة مماثلة وفشلتُ، تخيلته وسيما بشكل ما. وتخيّلْتُ أُمّي وقد ولدتني بمجهودها الخاص، أو بمعنى أدق، تَحملتُ نزع أُمّي ونزواته حتى أتت بي، بعد ذلك لم يعد له أى لزوم، فقد أصبحتُ هي أُمّا. وفشل هو في ذلك.

لم تتركني حماسة الأطفال، كانت حماسة ناقصة، تفتقد لعنصر الطمأنينة، فهناك تضارب بين ما أحمله من أفكار وما أنا ذاهب إليه، كانت زيارتي للمستشفى تعلّق بالمستقبل، فيما أفكاري التي أحملها كلّها متمسكة بالماضي، حاولتُ قدر استطاعتي العيش في زمن المضارع لكي لا يقلت متى الحدث، أو يهرب، ولكنني كالعادة، فشلتُ في الإمساك بأي شيء.

حتى هذه اللحظة وأنا أرى منظر الأسرة من بعيد، لا أمتلك الشجاعة الكافية لدخول العنبر، ربما بسبب رائحة المرض التي تخرج من كل شيء، بدءاً من الأطباء والمرضى، ومروراً بالحيطان الرمادية الكئيبة والعربات الصغيرة المخصصة لحمل الأدوية، وليس انتهاءً بحسن وخراطيمه الكثيرة. كنت أرى حواف الأسرة دون رؤية الراقدين فوقها بشكل يسمح لي بالتأمّل الكافي. حاولت ضبط البرواز الذي ترقد فيه الفلاحة وتحمل فوق رأسها بلاصاً عدّة مرّات، وكذلك

حاولتُ الحفاظ على الرواية التي في يدي من بلل العرق. سألتني حسن نفس السؤال للمرة الثالثة:

- هل تعرف أى معلومات عن أبيك؟

- أعرف فقط أن اسمه سعيد إبراهيم.

كانت الساعة الثالثة والنصف حسب توقيت ساعتي أم عقارب التي قالت أُمّي عنها أن الأجيال تتوارثها. خرج كل من كانوا في العنبر عدا المرضى، فسألت عنهم حسن:

- من هؤلاء؟

تأمل البرواز المغطى بورق جرائد تحت إبطي. ثم عوج رأسه محاولاً قراءة اسم الرواية التي أحملها، ولما فشل لعدة مرّات نظر للناس الذين يتدافعون من حولنا وقال:

- هؤلاء هم الحراس الجدد.

* * *

من يُصدّق أنّك كنتَ تعيش مع أمك وجدّتك؟ أمك طريجة السرير مريضة، وجدّتك تنتمي لأسلاف أصبحوا جميعاً تراباً، تخطّت الثمانين وأصبح من الصعب إقناعها بأى شيء مما يجري بالقرب منها، فتصور دائماً أن كلّ من حولها يطمعون فيها ويكرهونها، بالرغم من أن البيت الذي تعيشون فيه كان إيجارا والعفش لا يأخذه بائع روبايكيا ببلاش، لم تصدّق جدّتك أنّك لا

أنت ولا أملك تكرهونها، ولكنها هي التي كرهتكما في العيشة،
بحركتها المتشنجة وحديثها المعروفة، وظلها الصغير الذي يتحرك
ملاحقاً لها، وأحياناً يسبقها، يراوغكما حسب موقع الجسم الأصلي
من الضوء.

كانت جدتك في الآونة الأخيرة تزغر لذراعك وهي تنطوح في
الهواء، تُدسم النظر إليها في صمت، لا يمكنك القول أنها نظرة
إعجاب، ولكنها كانت متابعة دقيقة لسير الحركة، كانت تتأمل
التطويجة كما لو أنها تتابع حدثاً مهماً، بعد ملاحظتك لذلك عدّة
مرات كنت تعيد النظر لذراعك، لعل في حركتك خطأ ما، فتجد
كفك كما هي، خمسة أصابع لا زيادة ولا نقصان، والكف ملتصقة
برسغك، والرسغ يأخذ بداية حركته من عظمة الكوع، تماماً كأى
إنسان عاды. تقدمتُ جدّتك في السن وظلّت عيناها براقنتين، أما
ملاحظتها، فكانت تشبه تماثيل الخشب الفرعونية.

ولكنّك ذات مرّة لاحظت شيئاً جديداً، كنتَ تحمل شنطة ثقيلة
منذ أيام، ومن فرط ثقلها تعلّقت بها ذراعك، تجمّدت حركتها، لم
تلتفت لك جدتك، ولكن عندما أنزلت حمولتك وبدأت ذراعك في
الحركة عادت نظراتها المريبة كما كانت.

هذا المرض الغريب أصابها منذ عدّة أشهر، لا تعلم إن كان
يصلح تسميته بالمرض أصلاً أم لا، كانت تتربّص بذراعك وهي
تنطّوح في الهواء، ثم تنفض من الخلف وتقضمها، عضّة قويّة تنقلب

بعدها أصابعها لخطاطيف في صلابة حوافر، ولما فعلت نفس الشيء مع أمك المريضة توجّست من تركهما معا، كنت كلما ذهبت لشراء شيء من البقال أو الخضري لا بد أن تجد مصيبة في البيت عند عودتك، كانت جدّتك تركض خلف فريستها -التي هي دائما أنت أو أمك- تنقض على أقرب ذراع لقمها وتكاد تلتهمها في وحشية، تقضمها بكل ما أوتيت من عزم النواجذ وإصرار الفكّين، أصبحت ذراعاك وذراعا أمك دائما فيها خرايش واضحة وعصّات محفور فيها مقاس أسناتها، تعلّمت بعد تكرار ذلك بعض الاحتياط، فلا تكلمها وأنت تُعبّر بأى إشارات جسدية، بل كنت تبتعد عن فمها الطائش قدر استطاعتك. ولما استشرت في المسألة رجلا مستأ ومهيا كان له بعض التقدير في مدينتك الصغيرة، قال كلاما لم تستخلص منه إجابة شافية، قال إن جدّتك عندها ترسبات أوليّة ورثتها عن أسلاف يبعدون عنكم بآلاف السنين، ربما كانوا رعاة إبل وأبقار بدائيين، وربما كانوا غنّامين أو صيادين، المهم في ما قاله أن هؤلاء الأسلاف كانوا ضد كلّ وافد أو جديد يختلف عما يعرفون، ظلّوا كما هم لآلاف السنين، لا يريدون مساعدة من أحد، حتى تقدّمت عليهم جميع الأمم. وعندما تم اختراع حروف الكتابة لم يعترفوا بها، وظلّوا يرددون أناشيدهم الشفاهيّة باستمتاع، أناشيد الرعاة والصيادين، وظلّوا متخيلين أن الشكل الأمثل والأجمل للإنسان هو أن يكون بلا ذراعين، ولا بد من اختفاء هذين التوأمين بأى حيلة، وكانت طريقتهم المثلى في تطبيق قناعاتهم هي أن يأكلوا أذرع

بعضهم البعض، حتى أصبحوا مشهورين بين جميع القبائل باسم "الصخور" ظل الأطفال بعد ذلك يولدون لعدة أجيال على الشكل الجديد، بلا ذراعين، فقط عظمة صغيرة مقببة عند الكتف لتدل على مكان شيء ما انقرض. أجبرهم الشكل الجديد على تدريب الأولاد والبنات الصغار على تمرينات القدمين، وأصبحت أقدام هؤلاء الأسلاف المشهورين بـ "الصخور تشبه جذوع الأشجار المعمرة، صماء وعروقتها كأوتاد صغيرة. وبعد أن أصبحت هذه القبائل القديمة ترى أن وضعهم هذا هو الطبيعي؛ أصبحوا يرون في الآخرين ذوى الذراعين عيباً جسيماً، فلا يلمح أحد منهم ذراعاً تنطوِّح في الهواء إلا وقام بالتهامها، وكان ذلك الفعل في تلك الأزمنة البعيدة يعتبر عملاً بطولياً، حتى أن زعيم القبيلة كان يعطى مكافأة كبيرة لمن يأتى له بذراع واحدة، حتى ولو بدون صاحبها. سألت الرجل المسن فور الانتهاء من الاسترسال في أساطيره، هل لهذا المرض علاج؟ في البداية، شرح طريقة الوقاية وثقة بالغة تنضح من قسماته، وبما أن جدتك لم تكن تخرج من البيت أبداً، فإن ما يثيرها ويؤجج شهوتها القديمة في القضم هى أربع أذرع فقط، ذراعاك وذراعا أمك، طلب منك أن تربط ذراعيك بحبل خلف ظهرك، ثم ترتدى فوقها ملابسك، وكأنك أصبحت بلا ذراعين، وبدأت في إقناع جدتك بأنك قد فقدتهما، صدقتك بسهولة، وبالمثل لا بد أن تفعل أمك، وعندما نفذتما ما قاله الرجل جاءت الفكرة بنتائج إيجابية، فقد هدأت جدتك وقل حماسها كثيراً نحو التهام الأذرع، ولكن ما

حدث بعد ذلك كان شيئاً غريباً، فبعد مرور ثلاثة أيام على هذا الوضع الصعب، بدأت تشعر بتنميل في ذراعيك وخدر، ومع مرور الوقت لم تعد تشعر بهما نهائياً، كأنهما مستلزمات تم الاستغناء عنها، والأغرب أن جدّتك التي فعلت كل ذلك من أجلها ما زالت تستخدم ذراعيها في الطهي والتشويح، وفي الضرب أيضاً.

(2)

كلما توغل الغروب كانت جدران المبنى تزداد كآبة، ظلال الأشجار تبدو مشاركة في العتمة بشكل ما، والبوابات الكثيرة أيضا، تُضفى غموضا محتملا على المبنى الواسع، تعانق ظلّها الملقى على الأرض، وتتشابك مع صغيرة سميكة من ظلال أعمدة إضاءة بعضها لا يُضىء. لم يكن أمامي أحد أتحدث إليه سوى حسن، أو بشكل أدق، هو الوحيد الذى كان ينفحنى سؤالاً قصيرا وهو داخل أو خارج. يرد بإجابات غير متوقّعة على أسئلتى. انشغلتُ لمُدّة بالأجواء ونسيتُ من جنتُ من أجله، أبى. هممتُ بدخول العنبر والبحث في كل الموجودين عن عجوز يشبهنى أو أشبهه، لم أكن أعرف سنة ميلاده حتّى أجنّ تجاعيده وأتخيّل انحناءاته. لمح حسن في مسّا من حيرة، فاقترب منى وقال بصوت به مسحة من طيبة:

- يمكننى أن أتعرف على أهلك بلا عناء.

- كيف؟

- تعال معى.

سرنا في طريقة طويلة، مررنا بلوحة مكتوب عليها اسم فلان باشا زوج علانة هانم وبتهما "الدموازيل" تورتان، كانت أسماؤهم مكتوبة على اللوحة من أجل تبرع هؤلاء الثلاثة بقطعة الأرض التى شُيد

عليها المستشفى. لوئيا، يتحد الغبار مع عروق الرخام الأبيض المجلدة به واجهات المستشفى من الداخل. اجتزنا اللوحة الرخامية، مررنا على غرفة ممرضات يلبسن زيا له غطاء رأس كبير كأذن فيل أبيض، بجوبن المكان ببطء، كانت تميزهن جميعا بدانة مفرطة، تهنز عربة الأدوية التي يدفعنها فتفكك أجسادهن بشكل غير أنثوى بالمرّة، يتبعهن رجال تتوزّع على ملامحهم صرامة بغير عدل، فالقم مبتسم وقرطان في الوقت ذاته، والعينان أيضا، تضيقان بامتعاض، ثم تبدو البصّة كأنها تأملات فكرية. كان بينهم رجل عجوز يبدو من تكشيره أله قائدهم، نجح الزمن في رسم "سنيوكسات" بالطول والعرض والورب على جبهته.

الطريق لم يكن طويلا، ولكنى كنت أتوقّف أمام مشاهد تميّز بعشوائية كذلك التي تُنسج منها الأحلام، يبدو الشكل في الأول غرضيا وغير مقصود، فأرى الطريقة الفسيحة وقد غطتها ملاءات ملوثة ترقد فوقها الممرضات لا المرضى، ثم أرى المرضى نائمين على البلاط ويتوسلون للأطباء، وأمرُ امرأة أرى فيها نفسى كائى كبرت بدون سابق إنذار، ولم أكن طفلا في يوم ما، ثم يتشكّل وعي عن طريق حزمة أمنيّات حددتها أمي، وبعد أن أصبح بإمكانى تحقيق ما أرادت ماتت، تركتُ لى الحيرة فى اختيار أب يناسب طموحاتى وخيالى، وذلك بالتأكيد لأحلّ محل أبى الذى حلّ بدوره محل جدّى. تركتُ المرأة أو تركتُنى، وتذكّرتُ أئى جنت إلى هنا باحثا عن أبى.

كلما نظرتُ للساعة أم عقارب يدور بى الزمن لفّة دائرية واسعة، أكاد أتوه من مركزه، أشعر باحتياجى الدائم لتواريخ وأرقام حتّى

أتذكّر الأشياء. رائحة الصابون المعطرة التي كانت تفوح من ملابسى تلاشت وحلت محلها رائحة عرق خفيف، سرعان ما أصبح لا يطاق مع الحركة المستمرة، وأسنانى التي كانت تلمع، تذوقتُ طعم صداها بطرف لسانى.

ضوء بارد مسّنى، بالأدق، لسعنى وأنا أسير بجوار حسن، كانت الشخصيات المتجولة من حولى تبهت، تغيب ملامحها وتلاشى، كخطوط بيضاء مرسومة على ورق شفاف.

مررنا أنا وحسن على مغسلة كبيرة تغسل ما يُسبل على الأبدان، وبجوارها مغسلة أخرى لكل ما ترتاح عليه الأبدان، وبعد قليل قابلتنا الأبدان نفسها على هيئة بشر تغلغل فيهم العلل المشكّلة، تعشش الأمراض فى خلایاهم، وتضعهم إرادة أشخاص غيرهم على حافة صندوق المغامرات.

وعندى حسن باتنى سأتعرف على أبى بسهولة، وكنتُ أرى العكس، فالرحلة بدأت بطرح أسئلة كثيرة دون توفر إجابات بنفس الكمية، لم يعنى ذلك من تخيل وجود بدن واقعى لاسم ظل يتردد بلا صدی لسنوات طويلة، سيصبح اسم أبى "سعيد إبراهيم" حقيقة لها لسان وقدمان، ذكريات وأحلام، فى البداية، حدستُ المغزى الذى يمكن أن يطرحه الاسم.. سعيد إبراهيم، وأنا.. عمر سعيد إبراهيم، تأملتُ الاسمين، كان الأول ينتمى للماضى، والثانى الذى أضيف اسمى فى أوله ينتمى لى، يخصنى بشكل كبير، هكذا رأيتُ اسمى الثلاثى، يمتطي أبى حرف الياء وهو ممسك بوتر الدال القصير، أما جدّى فيتخفى بين دائرتى الماء الصغيرتين يرمى الألف بلوّم، بينما انزلاق

الراء فى اسم جدى يشبه الانزلاق فى آخر حرف من اسمى. قبل استكمال تشكّل الوعى سَبَلَ على كل واحد اسمه كملابس زائدة وانتهى الأمر

طرق حسن بشبشه الزنوبة على البلاط، يبدو الصوت واضحاً كحدوة حصان تفرع الأسفلت. حاولت تجنّب جميع الموجودين وعدم الانشغال إلا بالبحث عن أبى، تبخر المرضى والمرضات فجأة، ولم أجد فى الطريقة الطويلة إلا أنا وحسن فقط.

دخلنا مكتباً به دفاتر متراكمة ومتربة، وأمام تلّ ملفات رجل يضع خلف أذنه قلماً بدون لبيسة، تتخفى ملامحه تحت نظارة كبيرة، هدستها فى حجم علبتى تونة، التفت لحسن، عندما رآه وقف ولى يده بقايا ساندويتش فول، وفى عروة قميصه تلبد حبة سليمة لها ذيل من طحينية، ثم قال:

- أى خدمة يا حسن؟

- اكشف لى عن اسم سعيد إبراهيم.

تناول الرجل دفترأ بيده المتوقفة عن رفع الساندويتش، أخذ يفرّ صفحاته بيد، ويده الأخرى تضع طرف الساندويتش تحت أسنانه، توقف عن المضغ وتأمل الاسم مراراً ثم نظر لحسن بشكل مرتبك وأغلق الدفتر فسأل حسن الرجل:

- الاسم مشطوب؟

- نعم.

- كُله؟

- باق حرفان فقط.

أطرق حسن قليلا كأنه يتأمل حذاؤه، ثم خرج، مشيت خلفه
وسألته:

- هل عرفت أبي؟

- عرفته.

اجتزنا الممر الطويل في الاتجاه العكسي، وقبل أن نصل للعنبر
بقليل سألتني حسن إن كان قلبي جامدا؟ فأجبت بما يسمح برسم صورة
أفضل عتني في مخيلته، ولما أصبحنا أمام العنبر قال حسن: أبوك هو
أول سرير وأنت داخل العنبر على الشمال، وقبل أن أخطو خطوتي
الأولى جذبني من ذراعي وقال:

- ولكن تذكر.

- أتذكر ماذا؟

- لقد قلت إن قلبك جامد.

* * *

لم تعد جدتك في حاجة لمساعدة، فالكلمات التي قالها الرجل
المسن لم يكن لها إلا معنى واحد تقريبا، أنها ستحزم أمتعتها قريبا
وتصعد حيث المسافات التي لا يمكن قياسها، أصبحت على أتم
استعداد لاحتضار جدتك، لم تكن تخشى الموت، فهو غير مُعَدٍّ،
كنت تساعد على اجتياز مرحلة الاجتضار، تتعاون معها في ذلك

قدر استطاعتك، اشتريتَ لها الكفن ووضعته في الدولاب، ولكنها فور رؤيته أحضرته ومزقته أمامك وقالت:

لو جئت بهذا الشيء هنا مرة أخرى فساكتب عليه اسمك بالحرير الأحمر.

اشتريتَ لها كفنا آخر، لففته في مصليّة مركونة في الدولاب. لما تأكدتُ من أنكما تأخذان التدابير توقعا لموتها أصبحتُ أشدّ شراسة، تحولت معاملتها لشكل شبه عسكري، تُلقى أوامرها على مسامعكما ولا تقبل إلا الطاعة العمياء:

حط الحصار في الشمس.

حاضر.

لم البيض من تحت الدجاج في العشّة.

حاضر.

ارم قشر البطيخ للعرة المربوطة.

حاضر.

تمل من الرد المستمر بكلمة واحدة:

حاضر. حاضر. حاضر.

كلمة تبيّست في فمك، لا تناسب الطاعة بقدر ما تناسب رغبتك في صمت جدّتك هائياً؛ في غلق فمها المظلم للأبد. موافقتك على كل طلباتها المجهدة لم تجعلها هادئة، كانت ردودك

متسامحة برغم صوته المرتفع، فعندما تصيح كانت تفقد السيطرة على ضبط مستويات صراخها، وكان من المزعج أن تحدثك بصوت هادئ وقور ثم يعلو فجأة فتتفقت أعصابك بلا تحكم.

أحضرت لها طبيباً ليكشف عليها، لم يكن دافعك هو الحفاظ على صحتها، ولكنه الهاجس من تأنيب الضمير إذا ماتت وأصبح من المستحيل عودتها مرة أخرى، قال لك الطبيب وهو يُعَبِّئ سماعته وجهاز الضغط في حقيبتة السوداء:

جدتك في طريقها للجنون.

في البداية، فاجأتك الكلمة صاحبة التاريخ السيئ، حاولت أن تبدو بمظهر الكبير الذى سيتحمل المسؤولية في جميع الأحوال، فسألته:

وفي أى مرحلة هى؟

رد وقد أتم تعبئة أجهزته:

في مرحلة الرقص على السلم. ولكنها صاعدة للنهائية لا محالة.

بعد يومين تقريبا كانت تصرفات جدتك تسير في نفس الاتجاه الذى حدده الطبيب سلفاً، أصبحت تتشاجر لأسباب تافهة، كأن تبحث عن شبيبها فلا تجد إلا فردة واحدة، أو تقضم صدغها من الداخل أثناء الطعام، صارت العيشة معها مستحيلة، خاصة وأنها تأتي بتصرفات عصبية لا يتحملها شخص طبيعى.

فكرت في شيء جديد، لماذا لا تفكّ ذراعيك وذراعى أمك، ولماذا لا تقنع جدتك بأنه يجب على كل إنسان أن يكون له ذراعان إلى جوار القدمين؟ وأنه لا يمكن أن يعتمد إنسان على جسده الناقص في الوقت الذى ينشد فيه الكمال، كان اعتراضها على وجود أذرعكما لا يتوافق مع حرية ذراعيها هي، إذ إنها كانت تأكل بيدها، وتمشط شعرها الجعد اللبّد، وترمي بالخبز الناشف لعزّتها المربوطة في المنور، ولكنها برغم ذلك كانت تريد منكما أن تسفّا التراب.

حدث تحوّل في رغبات جدتك مرّة واحدة بدون تدرّج، لم يُرضِ نزواتها تخبئة أياديكم عن عينيها، ولكنها خرجت للشارع في سهو منكما وهي تربط شعرها لفوق كشوشة كوز ذرة، كانت تركض خلف أى ذراع تراها، تقضمها أو تكاد، سال لعابها في خيوط شفاة لا تنقطع، خاف منها من خاف وهول من هول، كانت هناك قلة واجهتها وأوقفت جنوبها الزاحف، أجلسوها فوق مصطبة وأوثقوها بالحبال، ظلت تصرخ كوحش هَرِم يرفض مصيره المحتوم، لم يعد فيها من نشاط إنسان إلا هزات تشبه التشنجات وصرخة واهنة لا تنقطع، تبيّض عينيها ثم تصمت، ولا يتحرّك فيها إلّا نني يروح ويجيء كبندول الساعة.

بعد أن هدأت جدّتك تذكرت كل ما مر بها كأنه شريط ممزّق تقفز فوقه كائنات طفيلية، تنمو فيه الأحداث وتنفخ الروح. فبعد

أن أوثقوها وكمموا فمها همد جسدها وأصابها الخدر، ولما فكّوها أخذت تصيح:

هَمّ ولاد الكلب سابوا لولاد الحلال حاجة؟

لم يرد عليها أحد، لا بد أنهم أدركوا استعدادها الفطري للخرف، عادت جدتك للبيت، ورجعت لسيرتها الأولى، ازدادت نهما وشراسة في مطاردة الأذرع المتطوّحة أمامها. هرمت كثيرا بعد هذه الأحداث، نما لها شاربان تحت أنفها يمكن لضعيف النظر أن يراها بسهولة ويعد شعيراتها المنتصبة.

وبعد حيرتك لأيام تستدعى طبيبا آخر، ربما يعرف لها علاجا يريحها، ويريحكم، قال وشعره المصبوغ يتطاير من مروحة السقف إنّ حالة جدّتك متأخرة جدا، ومثل هذه الحالات لا بد أن تأخذ تأشيرة الاحتضار، برشامة مُركّزة أو حقنة تُخلّصها من الآلام، وتخلّصكم، وذلك بالاتفاق مع العائل المسؤول عنها، رفضت أمك المبدأ، ورفضته أنت أيضا.

اقتрحت أمك أن تغلق عليها غرفتها حتى تقلّ الخسائر، ولكن ذلك لم يردعها عن الركض خلف أى ذراع تقابلها وقضمها، بل وتكسر غرفتها أيضا، كانت جدتك ترى في أطراف البشر فوائض عن الحاجة.

وبذلك فشلت الخطة الأولى لأمك، أما خطتها الثانية فكانت شغلها الدائم بأشياء غير معتادة، كأن توكلوا إليها مهام لم يسبق لها أن فعلتها من قبل، مثل رتق الملابس أو الجلوس بين الدجاجات للّم

البيض أو تكويم الزباله فى شنة سوداء، وبرغم أنها مهام صعبة بالنسبة لمشاشة الحالة الصحية لجدتك، فإنها كانت تفعلها بامتناز دون مساعدة من أحد.

أما المرة الثالثة التى كاد فيها الطبيب أن يسب لمن خلفوكم فكانت منذ أيام قليلة، وقف الطبيب ورفع جلباب جديتك للكشف عليها، كان بطنها مجمدا ويظهر قفصها الصدرى كمضرب بيض، من كثرة التجاعيد كنت تشعر بأن أمعاءها مكشوفة لا يغطيها جلد، طال بما الزمن أكثر من اللازم فأصبح متناقضا، تصطدم فيها الصبى التى كانت بكائن لا يعرف بالضبط ما يريده من الدنيا. كانت جديتك تحاول دائما أن تثبت لكم أن العيب فى الزمن وليس فيها. وأن كل شىء سيصير على ما يُرام، فالأرض تدور كالعجلة ويمكنها استعادة أى شىء. وإمعانا فى إثبات ذلك كانت تحوم حولكما بخطوات أسرع مما اعتادت، فيلقى ذلك فى قلبك الرعب، والحذر. لأنها فجأة تتخلى عما اعتدت أن تراه، تتجلى أمامك بهيئة مريية، وربما منفرة.

جذبت جديتك سماعة الطبيب الفضية فى سهو منه ووضعتها على أنحاء متفرقة من جسدها، ثم استقرت السماعة على بطنها وقالت موجهة كلامها للطبيب:

حمرا ولا قرعة يا دكتور!!

هنا أدركتم بأنها مجنونة، ولا داعى لأى مواربات قد يخسر بسببها الجميع.

(3)

لم تخفى كلمات حسن بقدر ما أخافتني نظراته الحادة، دخلتُ العنبر وعبرت كل الراقدين، رأيتُ بعض الزجاجات الفارغة ملقاة تحت الأسرة وبجوار الجدران، وبقع دماء ناشقة تبرقش الملاءات، عندما سألتُ عامل النظافة عنها قال إنها بوية حمراء لترقيم الفرش، كان الراقدون صامتين تقريباً، عدا واحد يتكلم بصوت خفيض، وآخر يتسم استعداداً للضحكة، أما غير ذلك فعنوان العنبر هو الصمت المطبق المخيف. تعرّفت على أجواء العنبر والأسرة أولاً قبل أن ترسى عيني فوق السرير الذي قال حسن إنه يخصّ أبي. كانوا ثمانية أسرة، مفروشة عليها ملاءات كالحة، وفوق الملاءات يرقد مرضى من كل الأعمار والأمراض، وبين كل سريرين كومودينو محطوط عليه زجاجات مياه وعلب عصير وأطباق فارغة وسرنجات.

أحياناً أدعى الصبر ولكني في الحقيقة لا أمارسه، وأشعر طوال عمري بأن حرف الصاد في كلمة الصبر مُغلق على غمّيات وهمية مفترضة، وعدم وجود نقط فوقه أو تحته هو دليل على وحدته وانتظاره لشيء لن يأتي أبداً.

جاءت اللحظة الفارقة التي سأتعرف فيها على أبي. ولكن لماذا أثنى في كلام حسن؟ هل أعرفه من قبل؟ لماذا لا يكون غشني وضللي؟ على العموم، لن أخسر شيئا لو بحثت وسألت، لا بد سأعرف أبي أو يعرفني، فهناك مشاعر وكيمياء لا تستطيع الكلمات وحدها التعبير عنها.

أول ما وقعت عيني على سرير أبي تحت بطانية متهتكة النسيج وشريطها الساتان مهلهل، كانت البطانية كأنها ملصقة بالسرير ولا شيء ثالث بينهما، هل كان أبي نحيفا إلى هذا الحد؟ على العكس من ذلك، كان عريضا ومهيب الطلة، توحى هيئته بالوقار، هكذا وصفته أمي. وأيد وصفها أنني عندما وصلت لأول السرير رأيت رأسا سمينا ينام على الوسادة ويغط، يخبئ شعره بزعبوط مقلّم من القطن. سرّت رعدة في بدني عندما تأملت ملامحه، فقد كان بالفعل يشبهني، جلست على حافة السرير وقربت وجهي من وجهه، عليهما يجدان عنصرا مشتركا يفصل في الأمر توخيّت الحذر من أن تكون ذخيرتي في التعرف على أبي هي فقط مجموعة مشاعر متأهبة لاستقبال أثر من أي شخص والسلام، كان الفصل بين الأحاسيس أمرا صعبا للغاية، ولكن هذه مهمتي التي أتيت من أجلها، والتي أوصتني بها أمي وهي تحتضر، فكان لا بد أن أتعرف على أبي بأي طريقة لأريحها في نومتها الأبديّة.

اقتربت امرأة بدينة وملثمة، تلبس ثياب الممرضات، رمت على سرير أبي كيسا به برشام فرط وسرنجة وأمبول حقنة بتي، بعد دقائق قليلة مرت امرأة أخرى أشد بدانة ونحى وجهها أيضا وتلبس زى

مرضات غريب، سُترة بيضاء واسعة الصدر مشمورة الأكمام حتى الكوع. رمت على سرير أبي كيسا به قطعة جنة نستو وبيضة مسلوقة ونصف رغيف، وجهت كلامها لأبي برغم تخطئها الفعلى بحاله:

- حصتك يا عم سعيد.

قالتها بميوعة لا تناسب شكلها، خرج النداء من طبقة أحبال صوتية مرققة. كان أبي لا يزال نائما، أتابع في الرأس النائم ملامحه، كان حاجباه كثيفين وله شاربان أبيضان عريضان كجزء مقطوع من ذيل قط، وعنقه ملىء بتجاعيد تناسب سبعين عاما وليس فقط خمسين، أول ما اقتربت منه فتح عينا واحدة ثم أغلقها على ملاحي وعاد مرة أخرى للغياب. كان يحرك رأسه يمينا ويسارا بحركة كبيرة، دون اضطراب باقى جسده نجارة اتجاه الحركة. فتح عينيه الاثنتين بعد قليل وسألني:

- من تكون؟

- أنا ابنك. أنا عمر سعيد إبراهيم.

قلتها وانتظرتُ مشهدا عاطفيا ملتها كما تتصوره ذاكرتي من خليط أفلام السينما التجارية، لكنه لم يحضنى ولم يقبلنى، بل لم يلتفت لكلمة "ابنك" من أساسه. كانت تبدو على ملامحه علامات التعب والإرهاق، كأنه أتى مشيا من كوكب بعيد. تحول أبي من شخصية اخترعتها لإنسان أعرفه وأقف أمامه، فقد كان حتى الأمس فقط مجهولا بالنسبة لى، مع الإلحاح والتكرار، كان لزاما على وعلى أمتى أن أكمل طريقة اختراعه، فثناء طفولتى البعيدة، أيام أن أصبح

باستطاعتى شد ذيل قطة ومناجاة عصفورة، كنتُ أرى أبى مغزولا من صفائر فى الهواء، مُعلّقا، كشىء معنوى خيالى.

حاولت أن أشعل انتباهه بإخراجه من حالة السكون هذه، فقلت له دون أن يسألنى:

- أُمى ماتت.

وردّ بعد مدّة طويلة:

- لذلك أصبحتُ تأتى فى أحلامى كثيرا.

- أحلامك؟

- تُعوّض المسافة.

ردوده المقتضبة جعلت التواصل بيننا صعبا، أصبح من المفترض أن أبادره أنا بالكلام كلما انتهى من رده، كان صوته ينسلخ فجأة عن المشهد، فلا أعرف هل العيب فى حنجرته أم فى حاسة السمع لدى، انتظر أبى كثيرا حتّى قال:

- أنت على قيد الحياة فقط عندما يكون هناك أشخاص يسألون عنك.

جذبنى حسن بذراعه القصيرة العفّية من على السرير، اقترب ناحية أبى وهو يوجه إلى كلامه:

- جاء وقت الأشعة. سأخذ منك أباك لدقائق.

رفع حسن البطاينة مرة واحدة عن أبي. عن أبي.. أين أبي؟ أخذ حسن أبي تحت إبطه، حسن القصير جدا، بذراعه الذى هو فى طول زجاجة، ضم أبي أنا تحت إبطه وخرج، فقد كان أبي، أبي أنا. مجرد رأس، رأس فقط!

* * *

بعض تغيرات جسمانية طالت جدتك نتيجة لتشنجاتها التى لا تنتهى، أبرز التغيرات كان عطبا محدودا فى عمودها الفقرى، فأصبحت لا تقوى على النهوض بدون مساعدة، ومع تكرار المساعدات، كانت تكدر من يمد لها يده، فلا بد ستطوله شتمة فوق البيعة. ربطت لها أمك حبل كتان فى سقف الغرفة، كانت تمسكه كلما همت بالقيام، فالحبل لن يلتفت لسبابها فى كل الأحوال.

لم يردعها الوهن عن هوايتها العجيبة، فى البداية، كانت أعصابك تنفلت لأنفه الأسباب، ثم حاولت بعد ذلك أن تشرح لجدتك فوائد الذراعين، وكيف أن بدونهما لا يمكن أن تكونوا بشرا، أوضحت لها الاستخدامات عمليا، فأحضرت رحايا صغيرة فى حجم الكف، كانت مخصصة لطحن البن، ورثتها جدتك عن أمها، أمسكت بمقبضها وأخذت تلف دائرتها الحجرية أمامها، لم يخرج رد فعلها عن ضحك متواصل لا معنى له. حاولت أمك أن تريحك من العناء وشيل الهم، فقامت هى بتكملة الشرح لجدتك، وبكل الرقة الممكنة بدأت بالكلام عن الفوائد الجمّة للذراعين، عن

شرب الشاي تحدثت، وقتل الصراصير والتشطيف في الحمام،
وأضافت، الذراع تُكَبِّر، تسند على الأرض وتسجد، والأصابع
تسَبِّح، لم تفر أملك بعد بمجهودها الذهني إلا بمصمصه شفاه وضحكة
واهنة وكلمات غير مترابطة قالتها جدتك:

أنتم مثل الوز حنّية من غير بز.

لم ترد أملك، ولكنها تحضن جدّتك بحنّية زائدة، سرعان ما
تذوب المشاعر المتناقضة وترسى الموجه على مؤشر الشجار من
جديد. تفتح جدّتك فمها الشاغر إلا من ناب واحد حفر مكانه في
لثتها الوردية، أحيانا تبدو بطيئة في نطق الكلمات، وأحيانا تنكّم
وكأن أحدا يطاردها. لما اشتد أوار المشاجرات رفضت جدّتك
الاستحمام على يد أملك كما جرت العادة، وكأنه تهديد أو حرمان
من امتياز ما. تكوّنت مع مرور الأيام حول عنقها ودخل صوان
أذنها دوائر سوداء كالقتل، كانت تفرّكها عندما تتعصّب ويتملكها
الغضب. تحوّلت جدّتك في مخيلتك من كائن يمكن لمسه والحديث
معه إلى شبح خارج من بقايا كابوس.

توقفت برغبتها عن الكلام، ليومين كاملين ظلّت صامتة، كنوع
من توجيه العقاب لك ولأملك، ولما عادت الحياة مرّة أخرى لأحبالها
الصوتية سمعته ليس بصوتها، كانت وكأنها استعارته من امرأة أخرى
تشبهها.

نصحكم الأطباء المتوالون على علاجها بالحل الأخير، أن تذهب
لمصحة نفسية، لم تكن المشكلة في أن تصبح جدّتك نزيلة مستشفى

للأمراض العقلية، بقدر ما كانت العضلة الحقيقية هي مواجهة الناس بذلك. وصلها الخبر برغم حرصكما أنت وأمك على عدم إخبارها، تخلّت إرادتها عنها، تحولت لطفلة تبيكي وتبحث عن صدر ترمي فوقه. تبلّدت مشاعرها وعادت كما كانت مسالمة ووديدة، رغبة منها في عدولكما عن فكرة ذهابها للمستشفى. اقتربت من أمك وهي تحاول تقبيل يدها:

يدك أقبلها. أقبلها واتركوني. المستشفى لا لا وحق جاء النبي.

سحبت أمك يدها في الوقت المناسب وجذبت جدتك النحيفة واحتضنتها، غاص الجسد الضامر بين طيات جسد أمك المتماسك إلى حد ما. نام الجسدان المريضان وأصبح عليك أن تخط ذكرياتك التي بدأت تتشكل في هذه اللحظة.

أدركت أمك بغريزتها أنها لو صممت على ذهابها للمصحة النفسية، سيعلق مشهد أمها وهي تحاول تقبيل يدها في ذاكرتها للأبد، فضّلت على ذلك محاولة إصلاح ما فسد في عقلها اجتهداياً. وضعت أمك خطة مُحكمة لتقليل الخسائر، تلتخص في متابعة جدتك طوال اليوم على شكل ورديات، أنت نصف اليوم وأمك النصف الآخر، وتكون وظيفتكما هي ملاحظة أى تغيّرات في طبيعة تعاملها مع الأشياء، أصبحت جدتك شبه طبيعية بعد جرعة الحنية التي منحتها لها ابتها، حتى لقد بدت لمن يراها أنها شُفيت من دائها، شفيت تماماً.

بعد أقل من أسبوع كانت جدتك تلحس قعر حلة أرز باق منذ يومين، وفي عيناها تلك النظرة الغريبة التي كانت تنظر لك بها وهي تحاول قضم ذراعك. هي لم تعد للملاحقة الأذرع المتطوّحة في الهواء، ولكنها كانت تمضغ الأكل بطريقة متوحّشة، وعندما اقتربت من الحلة شعرت وكأنها على وشك افتراسك، كنت تبعد يدك عنها بسرعة وحذر، وتراها على هيئة وحش جائع جاء من مكان بعيد ليلتهمك.

تخصّنت جدتك طويلا في قلاع سنّها، فهي تعرف جيدا أن امرأة تناهز الثمانين لا يمكن أن يعترض أحد على تصرفاتها، وأنه لا بد من معاملتها كطفل مدلل له كل الحقوق. كانت تستغل هذه المزايا بكل قوتها ما أمكن، وتنحدر نحو الجنون في خطوات منتظمة، كنت تتحسس دماغك وتؤكد أن تحت طاسته يرقد مخك في سلام، تخشى من كثرة معاملتها أن يُخلّق عقلك بعيدا عن مكمنه، فقد كانت ترهقك بطلباتها التي لا تنتهي، وتحوّل ملاحظتها إلى تركيبة فريدة يصعب فهمها عندما تتحكّم فيها شهوة الطعام، كانت تلتهم أكياس المقرمشات وهي مقرّصة وضمفرتها النحيلة تهمز كحبل قصير فوق كتفها، ورأسها به شعيرات مجعدة ومتفرّقة، تبان بينها بُقع وردية مقززة. بسبب نحافتها وضعفها كنت ترى جمجمتها تحت الجلد كما لو كانت صندوقا يفتح وينغلق مع حركة فكّيها. ثم تتحوّل تعبيرات وجهها مرة أخرى إلى تقلّصات تستحق التأمل، وتقول:

بعد كل ما فعلتموه. ماذا تريدان منّي يا غجر؟

تطوّر الحوار إلى أن تحدّثت جدتك أخيراً عن الأسباب التي دفعتها لقضم أذرعكم، شرحتُ لأمك بصوت خفيض عن هواجسها، قالت أنّها لا تريد التخلّص من الأطراف المترنّحة إلا من أجل الله، وكان غريباً أن تتذكّر جدّتك الله في أمر كهذا، فهي لا تصلّي ولا تصوم، لم ترها ولا مرّة واحدة تتوضأ أو تجلس على سجادة أو تحمل مسبحة، حتى لفظ الجلالة لا تأتي سيرته إلا في الأمثال الشعبيّة فقط "الله جاب. الله خد. الله عليه العوض

واصلتُ شرحها للمسألة من وجهة نظرها، كانت ترى في اليدين بكل مشتملاتهما سبباً قوياً للبطش، فالذراعان هما من يمسكان بالبنادق والسكاكين، والأصابع تُسهّل الضرب والخنق. تدخّلت في الحوار وقلت لها إن الذراعين أيضاً يقومان بالعمل، يزرعان ويصنعان، وكانت غلظتك الكبيرة هي تدخّلك في حوارهما، انتفضت جدّتك وثارَت، وجذبتك أمك خارج الغرفة الصغيرة وقالت بصوت جاهدتُ لكي لا يصل لجدّتك:

كانت على وشك التبرير يا حبيبي. والتبرير يريح قائله. لقد أفسدت كل شيء.

حاولتُ أمك بعد ذلك استفزاز وساوس جدتك الدينيّة، ونجحت إلى حد ما، تكلمتُ جدّتك عن سبب غضبها من ترنّح أي ذراع تراه في الهواء، حتى ذراعها هي عندما تلمحه في المرأة، وتكلمت كذلك عن الرغبة التي تتملّكها في قضم الأذرع لطرد الشر.

عندما تُقَرَّب أمك وجهها من وجه جدتك كنتَ تشعر بأن الزمن يتأرجح بين ملاحظتهما، مرة مندفعاً للأمام ومرة منسحباً للخلف، تُقَبِّل جدتك أمك، فتطقطق بفكيها طقطقات منتظمة تحملك على النوم. تصحو فتجدهما تتبادلان الحكايات والضحكات، تغفو جدتك بين ذراعي أمك، تبدو كطفل أمهك اللعب، تفتح فمها، تتحرك سنتها الوحيدة وتدق لثتها ببطء، تحملها مع أمك كمرتبة توزع قطنها بغير عدل، تسحب أمك عليها الغطاء وتخصّك بحديثها الذي يصلح لإنهاء اليوم:

كلّنا محتالون يا خبيبي. محتالون ونزجّ بلفظ الله في أمور لا تناسبه في الغالب. دع جدتك تأخذ نصيبتها من الاحتيال.

(4)

كما تتلاشى الصورة في فيلم السينما وتحل محلها صورة أخرى جديدة كان إحساسي، خرجت من الواقع بطرف خيال بارق، ودخلت عالماً آخر مليئاً بدخان ضبابي وأبحرة ملوثة، كنتُ أتخيل أن الأشياء السيئة تحدث فقط للآخرين، ولما اكتشفتُ أنها يمكن أن تحدث لي كان يجب عليّ أن أفعل شيئاً، لا أعرف ما هو هذا الشيء الذي يتوجب عليّ فعله، ولكنني ورغم ذلك ظلتُ أقول لنفسى: "يجب عليك أن تفعل شيئاً يا عمر" حمسنى سماع اسمي لفعل ذلك الشيء المجهول.

كنتُ كمن وقع في فصل من رواية وأصبح شخصية تتجول على ورق، في لحظة واحدة، مرت أمامي الصور الوردية التي رسمتها لأبي، حتى في أسوأ التصورات لم يخرج في خيالي عن شخص نكدي كتيب، أو شخص غير وسيم بالمرّة. توقفتُ تصوراتي الخيالية واصطدمت بواقع لا يمكنني إلا التعامل معه بمجدية. حاولتُ أن أبدو أقل خوفاً، ربما جعلني ذلك أبدو خائفاً بشكل أكبر.

كانت الحياة تسير وفق منهج معد سلفاً، تكذّستُ الأحاسيس المريرة كلها دفعة واحدة أمامي، هُئى لي بأنى أناام خامداً فوق سرير

تعدني ملاءته بأحلام متوالية، فيها مرتع لاختلاط المشاعر الغامضة،
كأني أبحث عن بلد مجهول، أحاول استكشافه وفي يدي خريطة
بدائية، أرى الناس من حولي يتحركون كشعيرات صغيرة تتحول
بسرعة إلى ضفيرة، كنتُ كمُخرج اخترع شخصية ثم وقف أمام
تصرفاتها عاجزا لا يستطيع تعديل مسارها، فأصبح فقط يتابعها وهي
تواجه مصيرها.

شعرت بأن أبي لم يتجنبني، وأني ما زلت ماء يسرى في أورده
وحلقات عموده الفقري، وكأني شيء يحتمي بمكمنه البعيد. في تلك
اللحظات كنت أود تدوين بعض الملاحظات حول المستشفى، كنتُ
أحمل دفترًا صغيرًا مليئًا بالهوامش، حتى الملاحظات التي تبدو تافهة، لم
أكن أفوتها، فالذكر هو مادة الفن. مرت ذكرياتي كشريط سينما
تالف، نبتت التصورات كما كنتُ أحفظها في ملفات رأسي. وقفتُ
أحدقُ في الرأس وأتخيل، أرمم الصورة ليبدو أبي أمامي إنسانًا كاملاً،
كنتُ أشبه شخصًا جاء للإغاثة، ودون أن يدري أصبح في أمس
الحاجة لمن يغيثه. بعد أن تشبعتُ عيني بالصورة وتأكدت من أنها هي
الحقيقة وليس أي شيء آخر؛ انطفأت بعض المصابيح في دماغي،
لانت حدة الأفكار عندما اقترب مني حسن، زَمَ ملامحه فانغلقت عينه
الحولاء وتواريت السليمة، ولم يتكلم.

كان هناك سرير خالٍ بجواره، تمددتُ فوقه وغمّت، رحت في حلم
تشابكتُ أحداه سريعًا، رأيت ثلاث دجاجات سوداء تنقي من
الأرض دودًا أبيض، وبعد هضمه جلست الدجاجات تستريح وهي
تهضم الوجبة في كسل، وبعد أن تحوّل الدود الأبيض لجزء من كيان

الجسد الأسود بحثت الدجاجات عن المزيد من الطعام، لم يكن أمامها إلاي، وبرغم كونها دجاجات تافهة وعبيطة، فإنني منها ركضت، وقبل أن تلحق بي شعرتُ بوخزة خفيفة في ذراعي، لَمَّا أفقت وأدركت وجود الدجاجات في كوكب آخر أخذتُ أنادى على أشخاص في مدينة بعيدة ومجهولة، ولَمَّا استقرتُ روحى رأيتُ حسن. نظرت بجوارى فلمحتُ أبي نائما كما هو، أو بالأدق رأسه نائما.

كان حسن يُطعمه قطعة جبنة نستو، وضعها في فمه مع لقمة صغيرة، مضغها على مهل وهو يتأملني ويُضيق عينيه، كان يضغط بنواجذه على اللقمة ثم تنقبض تفاحة آدم وتتأرجح صعودا وهبوطا، تنقلص ملامحه وتعرّق إلى أن ينتهي من اللقمة، فيدسّ الأحوال غيرها. استفسرت من حسن:

- منذ متى وأبي على هذه الحال؟

رد أبي الذي سمع سؤالى وكان عطر ما بعد الحلاقة يفوح منه:

- هل حولتى أمك لحكاية واحدة. أم إلى عدّة حكايات؟

لم أرد، ولكن حسن رد بعد أن زر عينه الحولاء:

- عرفته هكذا.

نظر إلى أبي، ثم قال وكأنه لا يوجه كلامه لشخص معيّن:

- كانت مثلك. تحب الأسئلة.

ولمّا ختمتُ بأن السؤال يخصني تجاذبت معه أطراف الكلام:

- من تقصد؟

- أملك.

لحّت تحت سرير أبي حذاء أحمر، ماذا يفعل بالحذاء؟

صمت حسن قليلا، اعتدل في جلسته على حافة السرير وكأنه يستعد لقول شيء مهم، ثم تحدّث عن أبي وهو ينظر إلى ملامحه، قال إن أبي هو الوحيد الذي رفض الانتقال إلى مستشفى آخر، ثم رفض كل ما قرره المدير على الراء، لم يترك سريريه عند سماعه الشائعات التي تنطلق من المئذنة الصغيرة المطلّة على نوافذ العنبر، وأضاف حسن أن أبي كان عندما يسمع النداء يغطى وجهه بالبطانية، فيمر رجل مهيب الكرش والردفين، تبدو على ملامحه الصرامة وتنفيخه النعاس، يضرب بعضا خيزران كل البطاطين المفرودة ومن تحتها الأبدان، ثم يضرب بعد شد البطاطين الأبدان نفسها، كانوا كلّهم ينصاعون إلا أبي، لم يؤثر فيه ترغيبا بالجنة أو ترهيبا من السعير، كان رفضه نابعا من عناد وإصرار طبيعيين في شخصيته أكثر منه رفضا لأسباب الرّاع، بدأ الرجل مهيب الردفين أولا بلعبة الترغيب، فوصف تغريد البلابل صباحا على أن الطير تبحث عن رزقها، وهكذا البشر أيضا، لابد أن يبحثوا عن أرزاقهم وعن خالقهم، فقال أبي العنيد أنّها ليست بلابل، بل عصافير متشردة تنعق بصوت مزعج يجلب الضجر، وأنّها لا تبحث عن رزقها، وإنما تطير فحسب، مثلما يمشی البشر وتركض الوحوش وترحف الديدان، ثم أضاف:

"انتهى الأمر ولا بد الآن أن تنصرف"

ولم ينصرف الرجل الذى تقوس شاربه وقبت لحينه للأمام من فرط الغضب. ولكنه ذهب مباشرة للمدير الذى أمر بدوره بعقد مجلس الأحكام.

وقف الرجل مهيب الردفين فى يوم جمعة، خصص الخطبة كلها عن أبي، أضاف بين كلماته بعض التوابل اللغوية لإثبات وجهة نظره. بعد انتهاء الشعائر خرج الحراس قاصدين عنبرا واحدا، وقاصدين سريرا بعينه، هو رقم 1، الذى يرقد عليه أبي، اقتادوه للفناء وأوثقوه بالحبال فى عمود إضاءة كريتال بجوار مزلق مخصص للكراسى المتحركة. بدأ الرجل مهيب الردفين بتلاوة بعض الأسئلة على أبي لكى يبدو أقل قسوة أمام الجموع المتحفزة. ولم يرد أبى على أى من أسئلته، فتبرع ثلة من الحراس لمساعدة الرجل مهيب الردفين، أخرج أحدهم ورقة بها أسئلة جديدة ومد يده بها للمحقق، كانوا فى شبه غيبوبة يتميلون ويهدرون.

رأيتُ المستشفى بالكامل وقد أصبح امتدادا لعنبر أبى، بل امتدادا للسرير الذى يرقد عليه. دارت فى رأسى بعض الأفكار المبتورة، لم أستطع الإمساك بواحدة، فحسنت حسن ما يدور داخل رأسى، فقال وهو يرسم على ملامحه عبارة تمكهم طويلة:

- لا تخف. هم لا يمتنون الزائرين.

وقبل أن أفكر فى رد مناسب أضاف حسن:

- ولكن من يدري. فقد كنت أنا زائرا منذ شهرين، ثم تحولت الآن إلى نزير.

* * *

أصر الطبيب على ذهاب جدّتك إلى المصحّة، فحالها هناك سيكون أفضل، ورضيتما أخيرا بالمكتوب، لم تقل لها أمك إلى أين بها ستذهبان، فقط قالت جملة لا معنى واضحا لها:

تعالى نشم حبة هوا.

انصاعت جدّتك بدون مقاومة وملاحمها غير مطمئنة لمسألة شم الهواء، هي تعرف جيدا أنّها لا تخرج من البيت إلّا للعلاج، وتعرف أيضا أن المرة التي لن تخرج فيها إلى الطبيب ستجّه إلى القبر، كانت قد استسلمت كثيرا عن ذى قبل، باتت راضية بالقدر بشكل كبير، أو بتعبير أدق، أصبحت لا تقوى على المقاومة كما كانت منذ أيام قليلة. سألت جدّتك سوّالا لم تجد أمك عليه ردا:

لماذا تجمعين ملابسك كلها ما دمنّا سنشم الهواء فقط؟!!

وعندما تلعثمت أمك في الرد زامت جدّتك ومطت شفنيها للأمام، وساد المشهد صمت مريب. رأيت جلد جدّتك مكرمشا وبه لمعة منفرة، وعروق خضراء نافرة كأنها ملّت طول الحبسة فكادت تطف للخارج، أخذت جدّتك تتضاءل أمامك حتى هُيئ لك اختفاؤها، وكأنها كانت فقاعة أو خيالا أطاعت أمك وهي تغيّر لها

ملابسها، وكأنها تحوّلت لدمية لا حول لها ولا إرادة. كانت ضعيفة جدا ونظرها باهتة، عندما تأملتها تخيلت أن عينها ابيضّت واختفى منها الننى. أصبح لوها كبيضة مسلوقة. رشّت أمك تحت إبط جدّتك بخنّين من زجاجة عطر قديمة على شكل تمثال، وتأنّف جدتك، لا من الرائحة، ولكن من التوجّس.

جاءت السيّارة الأجرة لتنقل جدتك كيفما اتفق، بدت عظامها بالنهار أكثر بروزا وضعفا، وبينما أنتم سائرون في الطريق طلبت منكم التوقف، فركن سائق السيارة على جانب الطريق، نزلت جدتك وجلست على أريكة في الشارع، ظلّت تتأمل المارة بنهم، تضيق عينها أمام أى ذراع تراه، خاصة تلك الأذرع العارية، تتأمل البنات الصغيرات اللاتي تتجولن وتلعبن، أشعل السائق سيجارة وجلست أنت بجوار جدّتك، وقفت أمك تضع سبابتها وإهامها فوق شفتيها، وفي محاولة منها لمواساة جدتك تقربت منها وقالت كلمات عن النصيب والقدر وأن ربنا كبير وأشياء أخرى من هذا القبيل، ردّت جدتك بكلمات غبّية وغير شاعرية بالمرّة من نوعيّة ربنا يقصف عمركم، يا رب أشوف فيكم يوم وأمشى في جنازاتكم كلّكم.

بعد دقائق قليلة ارتخت أعصابها، دامها خدر طويل لصالح النوم والأحلام، حملتها ووضعوها في السيارة مرة أخرى، ثم اتجه السائق إلى المصحّة. رحت في غفوة وسرحت عن الناس والأجواء، فرأيت

جدتك تجلس أمام طاولة كبيرة، وأمامها عيال صغار يقذفونها
بأكاليل زهور ناشفة. أفقت على صرختها العنيفة وكلماتها المنفلتة:

نزلوني هنا يا أولاد الكلب.

حمد قلب أمك بشكل مفاجئ، شخبطت في جدتك وكأنها تكلم
طفلة، قاطعت صوت جدتك العالي، ردت عليها الشتمة بمثلها حتى
سكن الصوت ووهن، ثم عاد المشهد لسيرته الأولى، صمت وأفكار
تستعصى على الصياغة تدور في الأجواء بدون تعبيرات، كانت
الحناجر قد نعت والألسنة أجهدت والأبدان خملت. عند اقتراب
السائق من المستشفى توقف بعيدا عنها بمسافة كبيرة، ولما سأله لماذا
لم يدخل؟ أجاب:

الشرير وبعيد يا أستاذ. هنا الآخر. معكم ربنا.

عندما شعرت جدتك بأن عليها التزل تمسكت بالكرسي،
أخذت تشهق وكأنها تقاوم الغرق، ثم استكانت سريعا وثقل
رأسها، أصبحت كطفل على وشك النوم. وقالت بصوت ضعيف
موجهة كلامها لأمك:

ما دمت لم أحذف الناس بالطوب لماذا جئتم بي إلى هنا؟

منذ توقفت السيارة بكم أمام مستشفى المجانين وأنت تشعر بأنك
في مغامرة مثيرة، لم تكن المسافة تزيد على مئة متر حتى بوابة
المستشفى، ولكنكم قطعتموها في أكثر من نصف ساعة، كانت
جدتك تسير بينكما وأنتمما تحملانها تقريبا من على الأرض، بسطت
الكتابة ظلها على ثلاثكم، جدتك كأنها تهوى في منزلق، وأمك

تحاول الإمساك بها، وأنت حائر في التوفيق بين ما تشعر به وما يجب عليك فعله. كانت التفاعلات الداخلية في وعيك ترفض وصف جدتك بالمنحونة، فللكلمة وقع سيئ، ولكن إرضاء لنفسك قلت، حتى لو ألصق بها هذا الوصف فهو مجرد تغيير في التصورات ولا يُشكّل خللاً أساسياً، فالمنحون لو جُرح إصبعه سيئاً لم كما يتألم العاقل، ولو مات سيتم دفنه بنفس الطريقة، وسيقيمون له أيضاً نفس المراسم والشعائر. عاودت الكلمة المرور أمامك من جديد كأنها طيف، "جنون" الحروف مرصوصة بجوار بعضها، تثير فيك شجوناً عقلية، الجيم حرف مغلق، له مزلق أفقى كالقرباس، ترسّب فيه متاهات المخ متناهية الصغر، والنقطة من تحته تقف كحارس ينتظر مصير الحرف، أما النون، الحرف الثاني، فهو إناء لطهى ما قبله من شجون، وما بعده من احتمالات، والنقطة في منتصفها كحساء شحيح ووحيد، والواو، الحرف الثالث، يعطف على النونين، أما النون الأخيرة فهي نهاية المطاف، ومقبرة الأسئلة المتوقعة بلا إجابات معروفة، والسد الذى تتوقف عنده كل ارتباطات الكلام، فلا تعود أبداً كما كانت قبل أن تمر الكلمة وتأخذ موقعها المفترض.

تَلَفْتُ أعصاب جدتك وانفكّ تماسكها عندما أصبحت أمام البوابة، لم يكن أحد يعلم متى يمكنكم الخروج إذا ما عبرتم هذا الحاجز الحديدى الأسود. أخرجت أملك من عبها تذكرة التحويل مرفقة بروشته بما الدواء الذى كانت جدتك تتناوله. عبرتم البوابة، كانت الأجواء بالداخل أكثر سكوناً وهدوءاً من تصوراتكم المسبقة، وعلى عكس توقعاتك، لم يكن هناك "ملاحيس" يقفزون كالقروود

فوق أغصان الأشجار، ولا عجائز يربطون آذانهم بأقراط من فرد
أحذية أو يلطّخون وجوههم بعصير الطماطم، ولم تجد كائنات
تقفز من بين أقدامكم وهم يضعون أكاليل من العشب فوق
رؤوسهم.

وصلتم لمكتب الطبيب المختص، كان بشوشا لدرجة أنه وجد
صعوبة في غلق فمه، ظل يسأل جدتك أسئلة عامة ولا جدوى
منها، سنك، سكنك، هل تجيدين طهي المسقعة. انتقل من هذه
الأسئلة السخيفة إلى استجواب أمك بعدما نظر مليا في دوسيه ملئ
بالأوراق أمامه:

هل تفعل ذلك منذ مدّة طويلة؟

فردّت أمك وهي تتلفّت حولها مثل اللصوص، اقتنصت الإجابة
على سؤال الطبيب دون أن تلاحظها جدتك:
منذ أربعة أشهر.

أمر الطبيب البشوش بانتظار أمك وجدّتك بالخارج، ثم انفراد
بك وسألك:

هل أصابك مكروه بسبب علّة جدّتك؟

كلمة مكروه ليست دقيقة. ولكن فقط بعض المضايقات.
كان يكتب كل ما تقوله، وكأنه سيسترشد به فيما بعد. وقف
وترك قلمه ينام فوق الدوسيه وقال:

أتعلم أن جدتك ليست الحالة الأولى التي جاءتنا وتريد التهام
أى ذراع تراه؟

هل هناك حالات مشابهة؟

ترك الطبيب القلم ينাম فوق الأسئلة التي طرحها، ثم شبك كفيه
خلف رأسه وقال:

أربع وستون حالة في ثلاثة أشهر فقط.

أخذت المسألة بالنسبة لك بُعدا مختلفا بعد كلام الطبيب. فقد
كنت تتعامل مع جدتك على أنها مجنونة ولا تُصدّق ما وصلت إليه،
ولكن أن يشاركها في نفس الحالة ثلاثة وستون شخصا فهذا حقا
غريب. عدت للطبيب هذه المرة ليس للإجابة على أسئلته، ولكن
لتسأله أنت:

وهل عرفتكم السبب؟

أسباب متنوعة لا يربطها شيء واحد.

صمت قليلا ثم قال بطبقة صوت أقل:

ولكن أغلبهم قالوا إنهم يشعرون بعد محاولات القضم بأنهم
قد ازدادوا إيمانا.

(5)

عندما داهم الغروب العنبر نظرتُ من النافذة، فلم أر إلا ظلالاً
خلفتها إضاءات أعمدة تظهر على مدد الشوف فوق الكوبرى، وفي
القريب، منذنة مسجد صغير زاخرة بإضاءات فيها ألوان وزينة، وأمام
المسجد تتجول عربات جمع المخلفات الطيبة الخطرة.

على مقربة، كانت بعض التمرجيات تطهو للأطباء طبخة عجيبة،
قال حسن إنهم يسمونها "لقة الأرز المعمر"، وكانت عبارة عن خلاصة
رءوس بقر وصدور ديوك رومية مفروكة بكرم يعطى الأطباق لمعة
ذهبية، كان الأطباء يأكلون بنهم، يحشون بطونهم كأنه آخر الزاد.

توقف حسن عن إطعام أبي الذي كان محملاً بأمارات التعبير، فقال
شارحا حكايته:

لم يكن الرجل مهيب الردفين منذ شهرين يركعها، ولم يكن مقيماً
في مصر أصلاً، ولما تجمّع له جمهور يؤيد كل ما يقول، وجدها وظيفة
مريحة، وهل يوجد في الدنيا أفضل من أن يصدّق الناس كل ما يقوله
إنسان؟ عند جلدي في الساحة أمام المسجد، وقبل أن أفقد جسدي

بالكامل، كان كل من يقترب منى ويتبرّع بضربى يشعر بنشوة غريبة، نشوة أحسها فى قسوة الضرب وغلّ الزغد، لم يجهّزوا عدّة تعذيب، ربما لو فعلوا لكان ذلك فى صالحى، فلو أعدّوا الكراييج أو حتى المقصلة كان سيسبق ذلك محاكمة ما، ولكن لأن المسألة كلّها جاءت عفوية، فإن العقاب العفوى دائما أقسى وأمرّ. بدأ الحراس أولا فى البحث عن سُبُل يستحوذون بها على جسدى، فلم يجدوا إلا أحزمة الأمان فى كراسى السيارات، ثم بعد ذلك بحث الجمهور عن أشياء شبيهة، سحب بعضهم أسلاكاً كهربية من الأجهزة الطبية، وإمعانا فى التعذيب كانوا يُقشرون العازل البلاستيك عن المعدن النحاسى الرفيع، ومنهم من أتى بخراطيم قسطرة مستعملة دون النظر لفكرة العدوى، ومنهم من لفّ على كتفه أحبال غسيل لا أعلم من أين أتى بها. تجمعوا كلّهم من حولى بعد صلاة العصر وصنعوا دائرة كبيرة، اقترب قائداهم منى وظلّ يُلوح بسير كبير لفّ طرفه حول كفه، وما أن بدأ صياح الجمهور حتّى اجتاحت حُمى قويّة كل الواقفين من حوله، فبدأوا يُهلّلون ويزمجرون، تاه صوتى الضعيف وسط هدير من التداخلات الصوتية القويّة، بعد ضربتين فقط أحسست بصداع قوى دون ألم محدد، هُئى لى قبل بداية توقيع العقوبة أن الأمر سيكون أصعب، لكنّى أدركت بعد ذلك بقليل أن المشاعر السلبية التى اجتاحتنى كان مبالغا فيها وطفولية، إذ كنت أفكّر فى الدم الذى سيسيل والألم الذى يهز الجبل، لكنّى أفقت بعد أسبوع واكتشفت أن الأمر غير ذلك بالمرّة. فقد رأيت الغروب قبل ميعاده بساعات، وبعد

توقع العقاب بقليل أحسست بأننى أطر، أبتعد عن الرزوس
المتشجعة، أذهب بما تبقى منى إلى عالم بلا أرض، لا ارتباط ضروريا
هناك بين الأسئلة والأجوبة، ولا توجد إشارات استفهام ولا علامات
ترقيم.

جرّونى بعد ذلك وأنا متفسخ المفاصل ومنهك. هنى لى أن شخصا
يمسك بزعانف شخص آخر ويسبحان معا فى الهواء، ومن حولى تكوم
جبل قطن وبكرة شاش كبيرة، ظلّوا يلفون ذراعى بالشاش حتى
اختفى تقريبا، وبرغم عدم وعى الكامل سألت نفسى، متى كُسر
ذراعى، وما دمتُ فى نظرهم مذنبا وارتضوا تعذيبى، فلماذا يعالجوننى؟
ربما أرادوا أن يجربوا معى سعيّر الدنيا، أى كلما كسرت عظامى
جبرونى ليكسرونى مرة أخرى؟ جرّونى بعد ذلك لعنبر كبير، يقف
على بابهِ أشخاص تبت لهم لى حمراء بلون قشرة الرمان، ثم..

توقف أبى عن تذكّر الأحداث وكأنه خرج من الحلم، تناءب
وتخيلت له جسدا يتمطّع، وحسن يجلس بيننا، يُملّس على شعيرات
متبقية فى الرأس النائم.

مال حسن علىّ وقال إن إمدادات الغذاء فى المستشفى على وشك
النفاذ، كان الجوع قد بدأ يتملّك منى ويقرص أمعائى، لماذا لا أخرج
وأشتري ما يعجبنى من طعام؟ وبالمرّة، أعزم أبى وحسن على وجبة
ساخنة، فذلك سيكون بالطبع أفضل من التعيين الناشف الذى
يوزعونه عليهم مرتين فى اليوم.

خرجت في اتجاه البوابة التي دخلت منها، هتت عنها في الأول، ثم عرفتُها فيما بعد بالشبه، كان سبب توهائي هو تغيير الورديات، فرجل الأمن الذي نظر في تصريح الزيارة عند دخولي كان نحيفا وطويلا وأسمه كعمود نور لا يضيء، أما الآن فيقف رجل بدين جدا، يجلس كالزكية أمام البوابة، نظر إلى بعين مخمرة وأشاح لي بكفه السمينة أن أعود أدراجي. فاقتربت منه وسألته:

- أين زميلك؟

- زميلي؟

- من كان واقفا هنا منذ ساعتين.

- أنا واقف منذ ثمان ساعات.

- أنت تكذب. فأنا كنتُ هنا منذ ساعتين، أو ثلاث على الأكثر

- يا عم روح.

ثم اقترب مني بشكل مبالغ فيه، حاولت إقناعه بأنني دخلت من هذه البوابة منذ ساعتين ونصف تقريبا، ولم يقتنع، لماذا أوجع دماغي بمحاولة إقناعه؟ أمسكت بالبوابة، فتحتها، أصبحت إحدى قدمي بالخارج، انقضَّ الرجل السمين عليّ، جذبني من ذراعي ودفعني للداخل فكدت أقع، شعرت بالخطر من شدة الدفعة، استعطفت الرجل الذي تحولت ملامحه بسرعة غريبة في اتجاه شراسة غير مبررة:

- سأشتري طعاما.

- ها.

- طعاما من الخارج ثم أعود.

- ها.

- لقد كنت بالخارج منذ ساعتين فقط.

- عد كما كنت أحسن لك.

تبدّل قلقي بهاجس جديد تماما، الخوف، بالفعل عدتُ إلى أبي، كان المشهد كما هو وكأبهما تيسا منذ تركتهما، حسن يجلس على حافة السرير، وأبي يختصني بتكملة ما حدث له في حوش المستشفى على أيدي الحراس الجدد، قال وملاحه تبدو أكثر هدوءا:

- ثم حضر الرجل الذى أنهى المسألة كلّها فى غمضة عين.

- من؟

فاندفع وكأنه ينتظر أن يسأله أحد:

- سيف باشا!

* * *

وهكذا بين عشية وضحاها أصبحت جدّتك مجنونة، كان هذا رأى طبيب المستشفى الذى دوّنه بجرّة قلم، ربما ليؤكد وجود منبوزين فى هذه الحياة. تركتها تواجه مصيرها وعدّما أنت وأملك إلى البيت، تقسّمت المهام التى كانت تقوم بها جدتك بين اثنين فقط، وأصبحت تنام بعمق منذ تركت البيت. ولكن الناس فى

مدينتك الصغيرة لم يتركاكم في حالكما، قالوا إنكما تخلصتما من جدتك بإبداعها مستشفى المجانين، وهى التى لا تستحق منكما ذلك أبدا، وقالوا أيضا إنكما قساة القلوب، وكانت أى محاولة لمقاطعتهم تبدو غير وجيبة.

بعد ذلك بأيام قليلة اشتكت أمك من أوجاع جديدة، لم ينعم بيتكم بيوم واحد يكون مكان المرض فيه شاغرا، كثرة تتوارثها الأجيال. مرض أمك جاءها لا يحمل اسما هو الآخر، كانت تصحو من نومها مفزوعة كأنها ممسوسة بكائنات حضرت من بقايا حكايات قديمة، تشير إلى قدميها وتقول إن أظافرها اخترقت الحُجُب، بالفعل، كنت ترى أصابع قدميها جامدة وملتهبة، تلمسها كأنك لمست نارا، ثم تبيض عينها مثلما كان يحدث لجدتك، تحكى عن اجتيازها لحلقات من لب، تسعل بصوت متحشرج كالخشاشين، ثم تتغير نبرة صوتها تماما وتناديك باسم غير اسمك، تقول يا سعيد، وتنبهها لأن اسمك عمر، وأن سعيد أباك مات قبل أن تولد. وتركز أمك جيدا قبل أن تقول:

سعيد لم يمت.

انقسمت أمك بعد غياب جدتك لشخصيتين، شخصية تنام بالليل وهى كما عرفتھا منذ وعيت، واهنة الصوت، مسلوبة الحيل، جُمَلها قصيرة ودالة على الهدف من أقصر الطرق، لا ترد على أغلب استفساراتك، ثم بقدرة قادر تستيقظ فى منتصف كل ليلة بصوت وهينة مختلفين، تحكى حكاياتها بشغف طفولى ومشاعر رقيقة، تلضم الجمل وتحورها على قد خيالها، تنصت إليها وكلك

شغف لمعرفة آخر الحكاية، كانت الموضوعات شائعة وغير مترابطة، تفسدها محاولات التحليل، وكنتَ عندما تسمع صفير الليل تهيم روحك لاستقبال أشخاصها، كائنات ليست من لحم ودم، بل مشغولة من هواء وضياء، تشعر وأنت في حضرتهم بأنك تمشى على بساط من زهور، وتحس أصابعك مرشوقة في جرابات ناعمة كأنها أغصان من ورود، تحل مفاصلك وترى نفسك طائرا والكون من تحتك يبدو صغيرا، والدنيا بكل عُقدتها عبارة عن كرة من خيوط متشابكة وتافهة.

اعتبرتَ ما حل بأمك شيئا مسليا، جعلك تتحمل سخافة الواقع، ولكنك لاحظت أنها كبرت فجأة عندما ابتعدت جدتك عن البيت، بانث تجاعيدها قليلا، وكأنه لا يصح أن يكون مكان الكبير شاغرا، وكان جدتك يُعاد إنتاجها بشكل مختلف، وأنت تتابع التغيرات في جميع الأحوال، كانت أمك تبدو أخف ظلا عندما تستيقظ بالليل وتحكى لك ما يشغلها، فتحدثك عن بنات تطير وفرسان يعبرون البحار بقفزة واحدة، كنت تشعر عندما تأتي سيرة البنات بشيء من التلذذ الحر، تتسلق مادة طفيلية جنسية وينتصب شعر رأسك، كنت تستدعى نتفا من طفولتك أثناء فترات الاستماع، تشعر بأنك تحولت لكائن من قطيفة، لا يشغلك ما كنته أو ما ستصير إليه، ترى الآن فقط، الآن الذي لم تكن تعلم عنه شيئا في حضرة جدتك، فقد شغلتمكما مدة طويلة بالخوف، بالحرص على أطرافكما الفوقية من سعار فكيتها، فربطتهم مرة، وأخفيتهم عن عينها مرات.

ولكن تغيراً نوعياً حدث لأُمك في فترات استيقاظها أثناء الليل، كانت تحكى عن زمن صباها كثيراً، وكان عجيباً أن تحدثك عن تحججها بالذهاب لأبيك الذى كان يعمل ترزياً، وصفت لك بدقة كيف كان يضع لها الخطابات الغرامية بين طيات عباءتها بعد تجسيمها على قدها، وتحدثك كذلك عن الطريقة التى كانت تلمس أصابعه بما أصابعها. تضحك وتشرق بصتها وهى تلف كتفها فى الهواء برقة، كأنها عبرت بك الزمن، فى هذه اللحظات الخرافية من عمر اليوم كانت تتبخر المحاذير وتتلاشى التوجيهات، كنت تشعر لو أن أحداً رفعك فى الهواء بخيط عنكبوت فستستجيب للقفز بيسر، وربما للطيران أيضاً.

ولكنها كانت المرة الأولى التى تعرف فيها أن أباك كان يعمل ترزياً، وربما هى المرة الأولى التى يحضر فيها بقوة فى حكايات أُمك. أكانت صبية شاعرية تنسحب من وراء أبيها وتذهب لمحل الترزى الذى يقف فيه حبيبها؟. سعيد، الشخص الذى سيصبح أباك بعد مرور زمن غير معلوم؟ لو عادت أُمك صبية صغيرة فى مثل سنك، هل كنت ستحتاج لأب؟ أم كانت أُمك الشابة ستلعب الدورين معاً؟

على أية حال، فقد عادت أُمك فى الصباح لسيرتها الأولى، تسعل وهى تجرّ قدميها لأقرب كرسي، كنت تشعر بأن أُمك الأولى تجيد تمثيل دورها، فلم تعلق بذاكرتك كثيراً، أو بالأدق، كنت تحمّلها لتعبر مرحلتها بسرعة، فتحملك على أجنحتها إلى أُمك الثانية، الرائعة.

(6)

مشينا أنا وحسن مسافة كبيرة داخل أسوار المستشفى وما يشغلنى هو أمر واحد، لماذا لا يمكننى الخروج بالفعل من هنا؟ هل عبور سور قصير يحرسه شخص يمكن مساهاته بسهولة أمر بالغ الصعوبة؟ طرحت هواجسى على حسن بشكل مباشر

- ألا يمكننى الخروج من هنا أبدا يا حسن؟

لم يجب، ولم يثر سؤالى بداخله أى هاجس أو حتى دافعا للتفكير، كل ما فعله أنه هز رأسه مرتين وهو يخرج سيجارة من العلبة، ثم انحنى يلتقط من الأرض حبا من نبات أخضر فى حجم البندق، أخذ يرجم به طيوراً شحيحة تقف على أغصان الأشجار العالية. كان الليل ينسحب ببطء وتظهر بقع ضوء فى السماء، لفحة هواء ساخن لفتنا ونحن نتجول بين الممرضات البدينات والعمال العابسين. أشعل حسن السيجارة وأخذ يسحب منها أنفاسا عميقة ويخرج الدخان من فتحي أنفه، خرج هادرا كشلال يعبر كوخين، مد يده تحت إبطه ونفث شعرة بتلذذ، ثم انشغل مرة أخرى بسيجارته ودخانها الذى كان ينفثه بالورب من بين شفتيه كما يفعل عتاة المدخنين.

ترجّل حسن في اتجاه العنبر، وسرت خلفه، ثم سرّعت خطواته وكأنه تذكّر شيئاً هاماً، اجتهدت لمسايرة ركضه، كان هو الأسرع برغم قدميه القصيرتين، دخل العنبر وأضاء النور، كان يتجول بين الأسرة وكأنه يبحث عن شيء فقده، اقترب من سرير كان يرقد فوقه رجل عجوز يشبه حسن إلى حد كبير، الرجل مضطجع ويتنفس بحشرجة، في أنفه معلق خرطوم، والخرطوم موصل بسرّجة كبيرة تشبه الحقنة الشرجية، وصل حسن فيشة خلاط به بعض المكونات التي كانت تبدو من بعيد كبقايا طعام، ضغط على زر التشغيل فارتفع صوت مزعج لثوان، أصبحت الخلطة كلّها كمرق لزج، صبّها حسن في الحقنة الكبيرة وأخذ يضغط عليها فيشقه الرجل العجوز، على ثلاث مرّات وزّع المخلوط، بعدها نام الرجل ووصل غطيته للعنبر المجاور، خرج حسن، ومن خلفه خرجت، وسألته:

- هل هذا أبوك يا حسن؟

- لا.

- فلماذا تشغل نفسك بما يجب أن تقوم به الممرضات؟

- لو لم أكن كذلك مع كل الرّلاء لكان أبوك الآن مجرد رأس

ميت يمزّمز فيه الدود.

يُفضّل حسن ألا تكون إجاباته مستفيضة، يترك دائماً مساحة وافية للتفكير والتأمّل، كل رد فعل له يذكرني بالأفلام الأجنبية المتقنة، الثروة فيها قليلة، وتعتمد فقط على التخمين والتوقع من خلال

النظرة أو اللفتة. كانت أصوات التروليات وأوجاع المرضى المتنوعة تعمل كموسيقى تصويرية مصاحبة لحوارنا، أو كخلفية للصمت الذى نستسلم له أحيانا. بدا حسن مُستعدًا للحوار بشكل ما، فسألته:

- لماذا تساعدكم إذن. إن كان أبى أو غيره؟

- لأتى لن أخرج من هنا فى وقت قريب. ولذلك فأنا أفعل شيئا مفيدا أفضل من تسكعى أو قرقضة أظافرى أو انتظارى فتح البوابة.

- ولماذا أنت متشائم إلى هذا الحد؟

لم يرد.

استيقظ أبى بعد غفوة طويلة، أخذ رأسه يهتز وهو يقول كلاما غير مترابط:

- تذوق الطعام. حلو يا سيف باشا. حلو يا باشا أليس كذلك!

وقبل أن أهمّ بأى استفسار خرج حسن ونادانى بالإشارة من خارج العنبر، ابتعدت عن أبى وأنا أحاول تذكر ما رددته مرة أخرى:

- تذوق الطعام. جميل جدا يا سيف باشا. حلو. أليس كذلك؟

عبرنا أنا وحسن الممر الطويل المؤدى إلى العنبر، اجتزنا كذلك عنابر الدور كُلّه وحسن يسرع فى اتجاه الخروج، وكلمات أبى تطنّ فى أذنى "حلو يا سيف باشا" من يكون سيف باشا هذا، وهل اسم سيف يصلح لأن يعقبه لقب باشا، بل هل تصلح كلمة باشا كلقب أصلا فى هذه الأيام؟

سألت حسن، وكانت إجابته مشروطة بأن نقف في مكان براح، وعندما وصلنا للحوش الذى تنفرع منه البوابات الكثيرة للمستشفى جلس حسن على النجيلة وقرفص، فقرفصت بجواره، وبدأ يشرح لى كل ما استغلق علىّ فهمه، وخلاصة ما حكاه حسن أن سيف باشا هذا شخص ما زال حيا يرزق داخل المستشفى، وأنه موكل إليه تنفيذ العقاب بنفسه فى الحالات القصوى كما حدث مع أبى، فوق هذه البقعة التى نجلس عليها فى صرة المستشفى دارت معركة شرسة خاضها أبى منفردا مع جيش جرار أوله مدير المستشفى الجديد وآخره سيف باشا، وبينهما طوابير بلا عدد من جمهور متنوع المشارب.

فى صباح تنفيذ الحكم أمر الباشا بأن يركض أبى لمسافة مئة متر بأقصى سرعته، وفعل أبى مرغما، ركض، ولما وصل عند قدمى صاحب الأمر، كان التعب قد هدّه، فوقف يتر كل الماء الذى نشعه جسده، وأمر الباشا بجلد أبى عشر جللدات وصاية، فخرج صاحب الردفين الكبيرين ورفع سوطه فى الهواء، ثم طرّقه به على الأرض ثلاثا وهوى على ظهر أبى العارى، كانت كل جلدة تحقر مكانها أخذودا، ويقع جلد مفروى على الأرض، ويمسك به الباشا ويقربه من فم أبى ويقول له وهو يضحك كمن أصاب دماغه خللا:

- كُلْ لحملك. سيقضى بعضك على بعضه.

ويتذوق أبى جلده ويسأله سيف باشا:

- حلو حلو أليس كذلك؟

ویرد اُنی بصوت واهن لا یقوی علی دفع جُمْلَة خارج حلقه:

— حلو یا سیف باشا. تذوق حتی. جمیل یا سیف باشا.

بعد هذا المشهد أمر الباشا أبي بأن يركض لثة متر أخرى، فركض
منهكا وهو يلف ككوكب يدور حول شمس، ثم توقف أمام سيف
الباشا.

وانتہی کل شیء.

منذ أربعين يوما وأبي قد تحوّل جزئين انقسمت فيهما روحه،
توقف جسده عند البوابة فآلقوا عليه القبض، وسقط رأسه في مكانه.
وبعد مرور أكثر من دقيقة على توقيع العقاب، توقف الحراس وهم
فاغرون أفواههم، في أيديهم كراييج وسيور كراسي، وبقع من دم أبي
تلمع على لحاهم المصبوغة بلون قشرة الرمان، باهتين، محمليتين، فبعد
جلبة استمرت طويلا توقفوا عن الكلام، توقفوا تماما عندما رأوا رأس
أبي، أبي أنا، يتكلم وهو واقع بين أحذية الحراس، وبنفس نبرة الصوت
يقول:

— حلو یا سیف باشا. جمیل. تذوق الطعم. حلو یا سیف باشا.

كان غياب جدّتك عن البيت له ميزات عدّة، أصبحت أمّك تحكى ما نشاء، وأصبحت أنت أكثر أتناسقا مع الحكايات، لدرجة أنّك اكتشفت نفسك من جديد، فكل ما امتنعت أمّك عن حكيه أيام جدّتك قامت بحكيه بعد غيابها، كان ينفرط من عنقود القصص

في كل ليلة حبة، تبججت في الكلام عندما أصبحت هي أقدم من في البيت، لم يعد فوقها رقيب يُعَلِّمُ عليها ما يجب قوله، أو يحجب عنها ما يُدِين من فضّ الأسرار، عرفت ملامح أهلك وبدأت في تصوّره كأننا مكتملا، رأيته يتدفّق عبر القصص والمواقف التي بدت لك طازجة، كان في الحكايات طويلا وله أصابع قوية وساعد يمكن أن يسند عليه جدار، وكان طيفه يخرج من أبخرة أكواب الشاي التي تنفحك أمك إياها أثناء حديثكما.

منذ ذهاب جدّتك إلى مستشفى المجانين لم تزورها إلا مرة واحدة، وعندما رأيتمها كانت ملامحها قد تغيّرت قليلا إلى الأفضل، زاد وزنها بعض الشيء وأصبحت غير مهمومة بما يحدث خارج أسوار إقامتها، طبخت لها أمك فُرُوجَة كبيرة، وأخذت معها في شنطة مستقلة بعض المقرمشات والبسكويت ومستلزمات الزيارة. عندما دخلتما كانت جدّتك جالسة على النجيلة ومقرفة، تشد من الأرض بعض خصلات خضراء وتعبث بها، جريتما في اتجاهها وحضنتها أمك، لم تكترث جدّتك، ولم تمد ذراعيها، قالت بصوت تاهت فيه مخارج الألفاظ:

تذكّرتوني بعد أسبوعين يا أولاد الكلب؟

- أنت لا تغيبي عن بالنا أبدا.

زدت أمك، فرمت جدّتك الفسيلة الخضراء من يدها، وبعد أن ثرثرت بكلام غير مترابط صمتت، لم ترد على استفسارات أمك

عن أى شىء. كانت تتأمل أفرع الأشجار وسيقان الورود وأعواد
الريحان التى يهزها الهواء بحرية، مالت معها كسبابة موز منتشية،
غنت بكلمات بطيئة مخدرة أغنية "مال العزال ومالنا" ثم استسلمت
لنوبة من الضحك وراحت تُسرف فى طقطقة سنتها الوحيدة
المرشوقة فى لثتها. كانت تضيق عينها وتزرها أمام كل ما يتحرك
من حولها، وكأنها رأت ما يستحق الملاحظة، كنت تشعر بأشياء
تُضىء وتنطفئ فى دماغها، وتحس فى نظراتها بشعيرات تطفطق
وتنفلت من مكانها، أدامت إليك النظر بتأمل، ثم قالت ورذاذها
يخ قميصك:

عُدْ إلى البيت يا لوح وخذ فى يدك أمك المهفوفة.

قالتها ثم أمسكت بجلبابها من الوسط وأخذت تلتوى كحبل
معقود. كانت جدتك التى تعرفها تنوب أمامك كقطعة جليد
تعرض لسطح ساخن، لم يعد لها الوقار الذى كان، فبعد أن استبد
بها التعب والإرهاق تمددت على النجيلة، وضعت رأسها الصغير
على فخذ أمك، بعد قليل انتظمت أنفاسها وراحت تغط. فجلبت
أمك كومة نجيلة ووضعتها بديلا عن فخذها، ولما استراح رأس
جدتك على الفسائل الخضراء انصرفت.

كانت أمك تتحدث كثيرا عن صلة الأرحام، ولكنها لم تستطع
الصبر طويلا على خرف جدتك، قاومت لمدة ثم استسلمت، تحولت
بعد انفلات شعيرات العنقية لكائن آخر.

عندما عدت إلى البيت أمرت أمك بأن يذبح عثرها جزار ويُفرق
لحمها على الغلابة، وفى اليوم التالى باعت دجاجاتها القليلة وتبرعت

بعثتها الخشبي للجيران، بعد مرور أسبوعين على غيابها كنت على وشك نسيان جدتك تماما، وسألت نفسك، هل أردتُ أمك بوعى كامل التخلص من كل متعلقات أمها؟ بهذه التصرفات سيتم محو أثرها كُلّه في ساعة واحدة، وكان نزوة عقلية حلت بأمك هي الأخرى، ولما سألتها عن ذلك قالت:

جدتك لم تعد موجودة.

باغتت الرد السريع، فجذّتك نائمة هناك فوق كومة نجيلة على بُعد عشرات قليلة من الكيلو مترات، تركتها والروح لا تزال فيها تدبّ، وقبل أن تتعمّق في تأملاتك الفكرية سمعت طرقا متواصلا ومزعجا على الباب، سأل الطارق عن اسم جدتك كاملا وهل هذا العقار يخصّها، أجبت بصحّة استفساره، فأخرج ورقة من دوسيه مدفون تحت إبطه وقال:

لا بد أن يأتى أحد غدا للمصحّة لكى يستلمها، فقد تعافت.

بعد ساعات قليلة كانت جدتك بينكما، تتحكّم فيكما من جديد وكأنكما عبادان لها، أضيف لجدتك الجديدة قدما ثالثة، عصا بُنية تسند عليها دائما بنصف انحناءة، وأضيف لها أيضا حركات جديدة، كانت تقف على طراطيف أصابعها وهى تمسك بالعكاز من المنتصف، توازن بين طرفيه وكأنّها ستعبر قمى جبل، وعندما وقعت منها العصا بغتة ورتّت على البلاط، ظلّت ترفرف بيديها، بدون عصا، وكأنّها على وشك الطيران.

(7)

برغم كل ما يحدث، لم أجد راحة حقيقية إلا وأنا بالقرب من أبي، فلم يعد لي بالفعل غيره كما قالت أُمِّي في آخر كلماتها. كان حسن لا يزال مقرصا بجواره، وهو يحكى له حكاية لم أسمعها من أولها، ولما طلبت الإعادة قال أبي:

- دعك من الحكايات. أنا أريد منك أن تعيد إليّ ما أخذوه.

- ما أخذوه؟

- نعم. خيروني بين ما تراه الآن وبين ما غيَّوه. فاخترت الأول وأخذوا هم الثاني وجسوه.

- جسوه؟

تكرار الكلمة الأخيرة كان يستفزّه بشدة. توقف الكلام عندما دخل الرجل مهيب الردين وتسمّر أمام اللوحة التي اشتريتها قبل مجيئي إلى هنا، باعد بين قدميه ووضع يديه خلف ظهره فطالا بعضهما بالكاد وسأل:

- على ما يحتوى هذا البرواز؟

جذب الرجل اللوحة، فضَّ عنها غلافها بقسوة، تأملها قليلا، وضع إصبعه السمين على ضفيرة منسدلة فوق كتف الفلاحة، ولم يتكلَّم، ثم انطلق وفي يده اللوحة، اقترب من النافذة، وجريتُ أنا من خلفه، عندما وصلتُ إليه كانت اللوحة تترجَّح في الهواء، تحتها وهى تسقط في عربة المخلفات الطيبة الخطرة.

في كل لحظات ضعفى، لحظات الهروب من مواجهة خطر ما، كنت أتذكر ملامح أمى، كان مجرد التفكير فيها كفيلا باستدعاء خيالات مريحة ومحبة إلى نفسى، تصورات عن فترة لم أعشها من قبل، فترة تعرفها الأحلام ولا تعرفها الحياة المحدودة التى باستطاعتى أن ألمس فيها الأشياء والناس، أنادى بأسماء أنساها فور انتباهى مباشرة، ثم أسرح وكأني رحت في غيبوبة.

كنت قد نسيت الحكاية الأولى غير المكتملة لأبى. توجهت إليه وسألته عن الشيء الذى يطلب متى استرجاعه، فلم يرد، ولكن حسن رد:

- يقول لك يجب عليك استرجاع ما فقدته منهم. أبعد كل ذلك لم تفهم؟

- من من؟

- الحراس الجدد.

لم أتوقف كثيرا عند كلمات حسن، ولكنى سألت أبى مباشرة:

- ما الذى تريد استعادته؟

- ما فُقد مِنّى.

- وأين أجده؟

- فى المخبأ.

- وأين المخبأ؟

- خلف المخزن.

سعل أبى سعدة خفيفة ثم توقف عن الكلام، فقام حسن وجذبنى
من ذراعى وقال:

- لا بد أن يرتاح الآن.

خرجنا معا وتركنا العنبر، كانت الأقدام قد خفت من الردهة
الطويلة، لم يكن هناك بشر على مدد الشوف إلا عامل وحيد يكس
المخلفات ويمسح البلاط، حيّانا، قال "السلام عليكم" وأخذ يكمل ما
بدأه من عمل مجهد وشاق.

جلس حسن فى البوفيه وطلب شايًا، فجلست بجواره وسألته:

- كيف نستعيد ما يريدہ أبى؟

لم يجب حسن، شدّنى من يدى وقام، ولما خرجنا شرح لى سبب
الخروج:

- هنا ليس للحيطان آذان. بل الحيطان نفسها آذان متكررة.

- هل يتنصتون على كلماتنا؟

- وعلى نوابنا إن أمكنهم ذلك.

نزلنا دَرَجًا خلفًا قديما يفضى إلى ساحة كبيرة، حولها أعمدة
إضاءة خافتة، كانت الأضواء صفراء وشاحبة تُلَوِّن الأرض، وعمَّال
يدلمون عربات المخلفات الطيبة الخطرة ويتجولون في كل مكان،
يلبسون زيا موحدًا صارما في دَقَّة درجة اللون الأزرق، وعرباتهم
مملوءة على آخرها بالمخلفات الخطرة، لم تكن المحتويات سرنجات
مستعملة فقط، ولا خراطيم نقل الدم ولا قطنًا ملوَّنًا، ولكن في
العربات ترقد أشياء أخرى تشبه كراكيب منازل أرسقراطية، ملابس
ملوَّنة، تنانير وبناطيل جبر، توكَّ شعر، أحذية رجال، زجاجات
عطور، كتب بأغلفة فخمة، تختلط هذه المتعلقات ببقع الدم وشاش
تضميد الجروح وعبوات محاليل فارغة.

ابتعدنا عن العربات وسألت حسن:

- قل لي. كيف يمكننا استعادة ما فقده أبي؟

- لماذا قلت يمكننا؟ تقصد يمكنك.

- وأنت؟

- وجودك هنا لساعات قليلة لن يجعل باستطاعتك استيعاب ما
يحدث.

عندما اقتربنا من البوابة الرئيسية جذب حسن ذراعي وغدنا
للساحة وأعمدة الإضاءة الخافتة. لم يعد يعنني إلى حد ما إن كنت

سأخرج عما قريب أم سأظل هنا حتى أموت، ما كان يحرك اهتمامي فعلا هو كيف سأقى بمطلب أبي، وهل أنا بالفعل قادر عليه؟

جلس حسن على حافة نافورة من نوافير كثيرة، قال إن مدير المستشفى اشتراها من بلاد برّة، ثم أضاف:

- هل تعرف هذا المبنى؟

كنّا بدون وعي كامل قد أصبحنا أمام مبنى يشبه فيلا قديمة مفتخرة، تحوطها حديقة صغيرة وأنيقة. كان منظرا جميلا، لكنني لم أستخلص شيئا من سؤاله.

وأجاب حسن:

- إنه قصر أمير قديم. وهو البذرة لإقامة هذا المستشفى الكبير.

- ربما يكون كلامك صحيحا يا حسن. ولكن ما دخل هذا

بمشكلتنا؟

- خلف القصر يوجد المخبأ.

- فلنذهب إذن خلف القصر ونبحث عما فقدته أبي.

مللت من جذب حسن لذراعي، لا يريد أن نستمر في مكان بعينه، لا نستقر على حال واحد لأكثر من خمس دقائق، وكان هناك من يراقبنا بشكل دائم. أشار حسن إلى رجل مهيب الكرش واللغد، طويل كعفريت القمقم، ملاحه عبوسة ومرعبة، حاول أن يتسم فخرجت الابتسامة أشدّ رعبا:

- عليك أن تجتاز هذا الفيل أولا

قال حسن.

- وبعد ذلك؟

- نتعرف على ما فقدته أبوك.. ونعيده.

أصابني كلمات حسن بالحنينة، ولو أضفت لذلك منظر الرجل وحشى الهيئة الذى كان علينا اجتيازه لأصبحت المهمة شبه مستحيلة. عندما اقتربنا من مكان الحراسة تظاهر حسن بأنه لا يعرفنى، تأخر خطوة واحدة عنى، بدا وكأنه من بلد آخر، بعد خطوات قليلة تبخرت شجاعتي التي كنت أتباهى بها منذ قليل. تسرّبت شيئا فشيئا حتى اختفت تماما، واختفى حسن، وصرتُ جباناً.

* * *

توقف ولع أمك بالحكي عندما عادت جدتك إلى البيت، عدتما مقيدين مرة أخرى بما يليق بمزاجها، أول ما وصلتُ سألتُ عن دجاجاتها وعثرتها، وقبل أن تجيب أمك وقفت جدتك في وسط الصالة وهمايتُ تماما لكيل السباب، رفعت حاجبا واحدا وأمسكتُ بجلبابها من الوسط وهبتُ فيكما:

بعنوهم. هه؟ شفتنوهم. هه؟ قلتم ستموت. أنا قاعدة على قلبكم وسأشيعكم جميعا إلى القبر.

بعد حبستها في المستشفى لعدة أسابيع تعلّمت بعض حيل
الجهانين، لساعات طويلة كانت تردد كلمات بعينها، من طول
التكرار كانت الكلمات في أذنيك تفقد معناها، ظلّت مرّة تعيد
وتزيد في جُملة لم تترك حلقها "الجَنّة يأكلها الدود.. الجَنّة يأكلها
الدود.. الجَنّة يأكلها الدود.. الجَنّة..."

مدّت جدّتك يدها ورفعت دُمّة كبيرة مصنوعة من القش،
تعصّبت وزمّت شفيتها ككيس نفود، زبدت ونفرت عروقها وهي
تمزّق الدمية، خلعت رأسها عنها، فصلته تماما، وألقت به فتدحرج
بالقرب من قدميك، قالت وغبار القش يلف رأسها الصغير:

اشترأها أبوك لك وأنت في اللّفة، والآن أصبحتُ شحطا ولا
يليق أن تلعب بها.

لو أننا لا نزال في العصر الذهبي للمؤرخين لكانت سيرة جدّتك
قد ملأت آلاف الصفحات، ربما كان فيها ما يُغري أكثر من
حكايات الملوك والأباطرة، كان تكرارها للكلمات يحتاج لقاموس
جديد، كأنّ مخّها أصابه العفن، فتشابك الكلام على لسانها مُربك
لدرجة المتاهة، ولم تكن وعكثها الصحية هي السبب في جَلْبَتها؛
بقدر ما كانت تبحث عن مكانة تليق بها بعد الغياب.

حاولت بالاشتراك مع أمّك تغيير خطة علاج جدّتك، لم تكن
على يقين بأنّ داءها يمكن علاجه، ولكنك برغم ذلك فعلت الكثير
من أجلها، تحمّلت عناء البحث عن شيخ صالح يعالجها بالقرآن، بعد

العثور عليه جاء يرقل فى عباءة جوخ وعمامة مُنظمة، حاول معها لأكثر من نصف يوم، قرأ ما يحفظ ونقح أحجبة وأقام شعائر، عزم ويخر حتى احتقن وجهه، أخذ الشيخ يُلقن جدتك بكلمات لفظتها جميعا، ثم التفتت إليه وسبته بأقذع الشتائم، تعرّى الرجل من هالاته بلسانها الحامى، انسحب من سكات وخرج، ومثلما جاء ذهب، بعدما فشلت تراكيب العقاقير ومنقوع الأعشاب وكنوس الحمامة فى تخفيف آلام جدتك هداً حالها، ذهبت لسريها الحديدى أبو عمدان، أعدت نفسها لمشهد احتضار تقليدى، نامت وشدت أملك فوقها ملاءة بيضاء مغسولة ومكوّية، شعرها المحتى بلون قشر البرتقال هائش ومثور على الوسادة، مركون بجوارها كومودينو مرصوص فوقه بقايا طعام وعلب أدوية وزجاجة مياه وطبق غسل أسود، فوق مقبض دُرجه مسبحة قديمة مربوطة تعود لأجيال متعاقبة من الأسلاف.

لم يكن حول جدتك أحد يقلق بسبب الميراث، وذلك لسبب بسيط جدا، أنه لا يوجد ميراث أصلا، لا شيء غير حكايات عن عز كان.

كانت أفعالها الغريبة مجرد محاولات للتمسك بالحياة ومقاومة لحظات الاحتضار، ولكنك رأيت أن تصرفاتها التى تحاول بها المقاومة تُقربها أكثر من ميعاد الرحيل، وبرغم ذلك لم تستشعر فى نظراتها أى يقين بأنّها تعيش ساعاتها الأخيرة.

أصبح لعابها كالغراء بين شفثيها المواريتين، وعظام وجهها تشبه أرضا شرقانة، كانت عينها يقظة وتدرى كل ما يدور حولها، إذ إنها قبضت بسهولة على بقعة تتمشى فوق كتف أمك وفحصتها بين إصبعيها، وكانت كذلك تتابع بقايا الأطعمة على الكومودينو وتعرف محتويات أدراجة من بصّة واحدة.

سحبت جدتك شلّة مزينة وحشرتها خلفها، عدلت من وضعيّة ظهرها ورجعت يجذعها حتى أصبحت كالجالسة، ثم نظرت إليكما مليا وقالت برصانة لا ينقصها التركيز:

لماذا تجلسان هكذا من حولي؟

ثم أصبحت ملاحظها أقرب لخريطة تحتاج لاستكشاف صبور.

(8)

عندما أتذكر نفسي وأنا خارج البوابة أشعر بالتي كنت غاية في
البراءة، وربما العبط، كيف استسلمتُ لهم حتى حبسوني في هذا
المكان؟ أنا لا أعرف هنا إلاّ حسن، وحتى حسن، يعتبر بالنسبة
لسذاقتي شخصا واعيا برغم غموضه هو الآخر

لم أكن أستطيع العودة لأبي وأنا على هذا القدر من الإحباط،
وقفتُ مع حسن في قلب الساحة الكبيرة خافتة الإضاءة، ثم جلسنا
نشرب شايا، لم يكن أحد يصنع الشاي في المستشفى إلا عاملة مترهلة
وملثمة، كان كل ما فيها أبيض وكأها نبتت من كومة قطن، لماذا
يعتقد الحراس أن اللون البيض ملائكي؟ كان لونا يمثل لي وجهها صريحا
للكآبة، فهو لون أثواب اللحود، والأحلام الهلامية التي لا تقف على
أرض واضحة ولا تُعبّر عن شيء محدد.

لماذا أحاول أن أفهم كل شيء، لماذا أضغط على أعصابي بهذا
الشكل؟ هل لأنني وجدت نفسي فجأة في محيط أناس لا أعرفهم؟ ألا

يكفى أنى فى كنفهم أصبحت بعيدا عن تفاهات الحياة بالخارج، فهنا لا وجود إلا لما يحدث بالفعل، مهما كان قاسيا فإنه حقيقى، فجميع المتع هنا لا تخرج عن وجبات لذيدة تُطهى للحراس أو يطهوها لأنفسهم، ثم بعد ذلك إقامة الشعائر وبدء أحاديث لا تنضب عن أشياء لها يجهلون، ثم النوم والانزلاق للخدر والأحلام التى لا حدود لها.

سرتُ وأنا لا أرى من الناس إلا أجرامهم، تحت أحد الحراس نائما على ظهره وكرشه قابب نحو السماء، كانت شمس الغروب تلون الأرض بصفرة قابضة، تابع الرجل سحابة تبعد ببطء وقال كمن ينجيها:

- الملك لك. لك.

بعد خطوات قليلة اقتربتُ من بوابة تقف عليها حراسة صارمة، عبرتها عربات متقاطرة محملة بكراتين أدوية وعلب عصائر وقدرور بها لحوم مطهّوة يلقَ فيها المرق، ورَّع الحراس ما بالقدرور على بعضهم، وورَّعوا الأدوية على الرّلاء.

اقترب منى رجل طويل بغير انحناء، عريض بغير ترهل، ساعده فى صلابة فرع كافور، كفه سميك وأصابعه فى حجم أصابع موز، لم يكن منشغلا بما يفعله الحراس من حوله، ولكنه كان يحفر بقادوم صغير ويرمى بذورا بيضاء كحب الفاصوليا فى الحُفر، بعد انتهائه من نشر بذوره قام واستلَّ من جراب يحمله مقصًا كبيرًا أطول من ذراعه، ثم وقف يقصقص ما زاد عن الأشجار القصيرة التى استدارت وظهر فى منظرها شئ من الجمال. اقتربتُ منه وسألته:

- ماذا تفعل؟

- أعمل بمهنتي.

- وما هي مهنتك؟

- بستاق.

قال ويده لم تتوقف عن العمل، بعد انتهاء تدوير الأشجار، جثا على ركبتيه وأخذ يضبط دوائر النجيلة، كانت محاولاته جادة ومرهقة لجعل الأرض منظمّة التعاريج كأشكال هندسيّة، مثلثات ودوائر وسنوكسات تبدو متناغمة، كان كآله يرسم الأرض ويعيد تشكيلها بطريقة تناسب شيئاً في نفسه، وكنت معجبا بالفرجة عليه لدرجة أنستني العربات التي تتدفّق عبر البوابات، نسيت أيضاً الرجل البدين النائم على ظهره وهو يناجي سحاب السماء.

سألتُ البستاق بعدما وجدت شيئاً يستحق التأمل:

- لماذا أنت تعمل وهم راقدون هكذا في بلادة وكسل؟

نظر الرجل هائل الجرم إلى ملياً، وأخذ يتابع الأقدام وهي تدق الأرض من حوله، ثم قال بشيء من الحدة:

- لا تقل عنهم هكذا.

حيّرني رد فعله غير المتوقع، لماذا يدافع عمن ينامون ليل نهار؟ أجبرتني حدّته على التوقف عن إصدار الأحكام المتسرّعة ومحاولة تأمل كلماته. فطرحت عليه السؤال بصيغة أخرى:

- لماذا تدافع عنهم وهم لا يعملون؟
- دعاؤهم لنا يكفي. فنحن نعيش ونجد اللقمة بسبب بركتهم وبشرهم.
- يمكنك أن تجد اللقمة بدوهم.
- لا
- ولكنهم لا يعملون.
- هم يعملون في أصعب المهن، وكل ما يتمناه شخص عادى مثلى هو الوصول لمثل ورعهم وتقواهم.
- بدا على الرجل صدق وخشوع. طأطأ رأسه وشخط في كمن فاته موعد هام:
- سأمحك الله. درس الوعظ بعد العصر. الوعظ بعد العصر.
- جرى البستاني فهتئى لى أن الأرض تهنز من تحنى، بعدما غاب الرجل الورع عن نظرى قب فى نفس المكان واحد من الحراس، كان كالحارج من تحت الأرض، اقترب متى دون أن يتكلم، داس على الدوائر والمثلثات وسبوكسات النجيلة التى أجهدت البستاني فى رسمها، ثم نام، بططت نومته العشوائية الحشائش وجعل مثلثاتها تنوء مع دوائرها، بعد أن فعل الرجل ما عليه فى إفساد المنظر الجمالى للنجيلة اختفى عن الأنظار هو الآخر

وقبل أن أحاول تفسير ما فعله نط حسن أمامي كأراجوز مربوط في "أستك"، كنت كمن يشاهد سينما خيالية، الجمهور فيها شخص واحد. تتابع الأشخاص أمامي وتمر الأحداث بسرعة، كأني قناة وهم الماء، ينسابون من خلالي، بدون تحكّم مني أو منهم. قال حسن الذي أصبحت أتوقّع مجيئه في أي زمان ومكان:

- لماذا كنت تتحدّث معه؟

- من. تقصد البستاني؟

- نعم.

- هو رجل طيب. يرسم النجيلة ويشدّب الأشجار وينثر الحب.

- إنه ليس طيبا. لو عرفت من هو ربما غيّرت رأيك.

تبعّت عيني أثر البستاني وكأني أرى خيالا منه تبقى، لم تكن مفاجآت حسن تروق لي في أغلب الأحيان، لأنها تضيف دائما معلومة لا أستعدّ لاستقبالها. سألته وأنا أحاول رسم ملامح لامبالية:

- من يكون؟

فاقترب مني حسن، تلفّت حوله ثم قال وكأله يستعد لأن يصير هلاما:

- من كنت تتحدّث معه منذ قليل هو سيف باشا بذات نفسه.

* * *

وتفكر في الهروب من هذا البيت الكئيب، فقد كان مجرد التجول في ملامح جلدتك يُشعرك بالرهبة وشيل الهم، تشبه ملامحها كرنفالا لإحياء ذكرى أزمنة مضت.

قامت من فراشها وهي التي لم تفعل ذلك منذ أيام، فتحت ضلفة دولاب وحيدة وأخذت تتفحص تنورة قديمة اعتلتها الأتربة، أخرجتها وحبكثها حول خصرها، تأملت الكرايش والتخاريم للحظات، ثم خلعتها ووضعتها مكانها لما أحسّت بوجودك قريبا منها، ذهبت لسريرها الحديد أبو عمدان مرة أخرى وراحت في النوم بسهولة.

كان وجود جلدتك معك في مكان واحد أمرا تحاول منه الهروب، شعرت بأن عمليات معقدة داخل دماغك تحظر عليك التفكير، لطالما حاولت تأمين نفسك داخل هذا البيت، أو بعبارة أخرى، حاولت تأمين عقلك من الغياب، اجتهدت ليكون وعيك حاضرا وسط هذا التزاحم المربك، لم تعد تملك نقاء اللغة التي تمكّنتك من المقاومة، ولم يعد في استطاعتك أن تُعبّر بواسطتها عما يدور في نفسك، تنصاع أحيانا للمناورات اللغوية وتستسلم لها.

لم تعد الثقة تعني بالنسبة لك ما كانت من قبل تعنيه، وتعاليم الدين أيضا، وقفت في منطقة رمادية باهتة، تاهت منك حزمة التقاليد الصارمة التي اجتهدت أهلك في تثبيتها داخل دماغك. توقف

بحثك عن مبررات أخلاقية لما تراه حولك من أحداث، كنت تبحث عن صيغ جديدة تناسب فقط ما تشعر به من أحاسيس.

اقتربت من سرير جدتك، تأملت ملامحها جيذاً، لوهلة شعرت بأنك لا تعرفها، الاقتراب الشديد من أى شيء يُحيله إلى أجزاء ضعيفة الترابط. أشارت لك بإصبعها كمن تستدعى أحد خدامها، أملت أذنك ناحية فمها، فقالت بصوت ضعيف متحشرج:

نفسى فى المشبك يا مقصوف الرقبة.

استهلكت وقتاً طويلاً حتى استوعبت ما قالت، وأثناء هذا الانتظار دبّت يدها في عبّها وأخرجت جنيهاً غريباً، قلتم الشكل مهلهل الخواف وضعف حجم الجنيه في هذه الأيام، تناولته منها وخرجت، لا تعرف من أين ستشتري لها المشبك.

وبعد أن توالى تصرفاتهما غير المترابطة، حدث ما أكد لك بأن نهايتها تدق الأبواب بقوة.

(9)

ما قاله حسن غير الترتيبات في دماغى، إذ لم أتخيل أن الرجل الذى قسم أبى لرأس وجسد يمكن أن يكون بهذه الرقة، يعتنى بالزراع ويُقَلِّم الأشجار ويستمتع للدروس الوعظ أيضا، عندما نطق حسن باسمه أحسست بأنى معدوم الحيلة والتصرف. استعدت بحدوء ملامح الرجل لأعيد تشكيلها في وعى من جديد بما يناسب شخصا شريرا، كان يعتمر عمامة ريفية ويلبس جلبابا بلديا يرتدى من تحته صديريا ويتعل بلغة، كان منظره العام كأى فلاح ميسور شريف.

ولكنى بعد كل هذه المناهات رأيت بأنى جدت عن الهدف الرئيسى ليجئنى إلى المستشفى، أبى، لقد طلب منى صراحة أن أبحث عما ضاع منه، لم يطلب منى قتالا أو سفرا بعيدا، لكنه طلب ما أخذه، جزءا منه، الجزء الأكبر، بل كُله تقريبا، ولو كان ما تبقى منه بالفعل ينعم بالحياة ولم يذفته، فهل سيمكننى التعرف عليه؟ ماذا كان يلبس أبى وقت توقيع العقاب عليه في ساحة المستشفى؟ هل كان يُدْفى رأسه بالزعوط القطن الذى لا يزال يلبسه حتى الآن، هل

يناسب وجهه السمين جسدا مترهلا؟ وبنفس القوانين، هل ينمو مع بعضهما كما كانا من قبل؟

غطى الظلام المستشفى إلا من أعمدة إضاءة خافتة، ونور آت من بعيد على مدد الشوف، فالكوبرى أمام البوابة لا يزال مُضاء ببعض كشافات غابشة. لَحَتْ سيف باشا يمشى ببطء، وفي يده سبحة طويلة تكاد تلمس الأرض، لَمَّا رَأَى تائها ولا أستطيع التكلّم وقف إلى جوارى وقال:

- مالك؟

اتخذ شكله الذى يناسب مكانته في ذاكرتى، كنت لا أزال أراه رجلا طيبا ونيلا، توقف الرد في حلقي عندما كرر سؤاله:

- مالك؟

- هل أنت سيف باشا حقًا؟

- أسألك فترّد علىّ بسؤال؟ وبرغم ذلك سأجيبك. نعم اسمى سيف. وباشا هذه مزحة أطلقها علىّ مدير المستشفى وذهبت لحالها.

- وهل أنت من يُقيم العقاب؟

- أسألتك كثيرة.

قال وهو يتعد عني كشبح مسني تأثيره ثم همّ بالانصراف. جذبته من ذراعه ليظلّ معي قليلا، فقال بعد ابتسامة بددت هواجسى:

- في هذه الدنيا من يستحقّون أن نزرع لهم الورود، وهناك أيضا من يستحقّون قطع الرقاب.
أمسكت بكفّه الكبير وفردت أصابعه القويّة ونظرت فيها مليًا
وسألته:

- هل يمكن لهذه اليد الطيبة أن تلوّث بالدم؟
- رد وهو يرفع عينيه بخشوع رقيق:
- اليد الطيبة لا بد أن تلوّث يوما ما بالدم.
- وماذا فعل أبي لتشرطه وتجعل كل جزء منه في واد؟
- من يكون أبوك؟
- سعيد إبراهيم.
- أخذت ملامح الرجل هيئة جادة والتفت إلى بكل جسده، ثم أخذ
شهيقا عميقا وقال:
- بص يا بُنى أنا لا أعرف أسماء. ولكّنى نذرت نفسي لله، أفعل
فقط ما تُمليه عليّ خلقتي المتديّنة.
- فقلت ودماغى منشغل بهدف واحد:
- ألا تعرف شيئا عن أبى؟

لم يرد سيف باشا، أخذنى من يدى كصاحب محل يهّم بتفريج زبون
على بضاعته، سرنا فى طريق طويل يتبعه عمر، اجتزنا العنابر جميعها،
عبرنا أعمدة الإضاءة التى لا تُضىء، وقفنا أمام بوابة داخلية لكنّها

كبيرة جدا مقارنة بأبواب العنابر، كنّا بالليل، وفي الليل تحفّ الروائح، تنسكع رائحة البتادين والمطهرات. رأى الحارس ملامح الباشا تقترب فسحب الباب الحديدي الثقيل ولفّ على بكر مزروع في الأرض، كان مثبتا بعجلات كبيرة في حلق حديدي بعيد المنال. ما أن اجتزنا البوابة حتى رأيت نفسي في مكان غريب، تتحرك فيه أجساد كثيرة بلا رؤوس، ترقص كديوك مذبوحة، لم أستطع الانتظار طويلا فسألت سيف باشا:

- لماذا تشنّج هذه الأجساد هكذا؟

- هي لا تشنّج. بل تذكّر

كنت أنا وسيف باشا فقط نحمل رؤوسنا فوق أكتافنا، أما الناس بالداخل فينعمون بالحركة في كل الاتجاهات لكنهم مقصوفو الرؤوس، عبرنا الأجساد فظهر الرجل مهيب الردفين، وأصبحنا ثلاثة بجميع الكماليات، كان يؤمهم في الصلاة، وقف بين أجساد تشبه بعضها البعض حد التطابق، وفي مكان العنق المجذوذ تشرب عروق بارزة ومُنْفرة. طلب منّي سيف باشا بأدب أن أقوم للوضوء ففعلت، وعدت لأجده واقفا بين الأجساد كشخص تقى يحرص على إقامة الشعائر، صلى خلف الإمام مهيب الردفين، ثم جلس كأى مؤمن صالح يستمع لدرس الوعظ.

كانت الأجساد فاقدة الرؤوس مجرد كتل من لحم، كصناديق لا توحى بشيء، لا يتكلمون، ولا أعرف بأى عضو يسمعون، وكيف

يتأففون من الرائحة الكريهة أو يشنون على أريج عطر، كيف يندمجون مع بعضهم؟ هل أصبح لهم مجتمع مستقل فيه يعيشون ويشعرون؟ بعد تساييح المساء وقف سيف باشا وأشار لى بطول ذراعه على الأجساد التى تتحرك فى كل اتجاه وقال:

- انظر انظر جيدا.. إنهم يمكنهم التكاثر وإنجاب ذرية بنفس الشكل، بدون رعوس.

كانوا يجلسون معنا ورؤوسهم فى أماكن أخرى. أبدان تحكّمها فى نفسها غير محسوب. انشغلت بعتهم، واحد، اثنان، خمسة، خمسة عشر وقف الباشا وربت على كفى وقال:

- لا تتعب نفسك، أربعة وستون بدنا.

- وأين أبى بينهم؟

- من يكون أبوك؟

- سعيد إبراهيم.

- أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

* * *

ماتت أمك على غير توقّع بالمرّة، فى لحظاتها الأخيرة أوصتك بأن تذهب لزيارة أبيك، وصفت لك المستشفى وطريقة الوصول، وظلّت تؤكد عليك وهى تمدّ يدها بالساعة القديمة أم عقارب؛ والى تعمل بنفض القلب:

لم يعد لأبيك غيرك. اذهب إليه ووده.

وبقيت جدّتك تنفنن في إزهاق روحك بالبطيء، فطلباتها لا تنتهى ولا تستطيع التوفيق بين ما تقوله وما تريده بالفعل. قبل أن تفيق من صدمة موت أمك، كانت جدّتك تجرى وراءك وفمها مغفور قاصدة ذراعك، جريت منها مرّات واصطدمت بالكومودينو، وقعت بقايا الطعام وفوارغ الأدوية وطبق العسل الأسود، تركتها وأنت تُسرّع بخطى واسعة إلى باب البيت.

بعدما نجحت في الإفلات من برائن جدّتك طنّ بداخلك سؤال كأنه الوسواس: لماذا ستهب إلى المستشفى لتبحث عن شخص لا تعرفه؟ حاولت أن تبعد شبح اليأس قدر استطاعتك. وبما أنّ أمك قد تركت العالم منذ ساعات فقد حاولت أن تفعل ما يتناسب مع شخص لم يبرد جثمان أمّه بعد. على الأقل تنفّذ وصيتها، فقبل أن تُغمض عينها قالت في تحديقها الأخيرة:

أبوك يرقد في المستشفى وحيدا. اذهب إليه. ستغيّر حياتك عندما تتعرّف عليه.

ثم صمتت بعد ذلك للأبد.

غيّرت ملابسك وخرجت، وفي الميكروباص سألت السائق عن طريق المستشفى، قال أنها بعد آخر الكوبرى بقليل، وأضاف وهو يركن لكى تنزل؛ أن المستشفى قد تغيّر كثيرا، فقد تولّى أمره حراس جلد.

وما أن لمست قدمك الأرض حتّى داهمتك همّة مفاجئة لعبور البوابة الكبيرة السوداء.

القسم الثاني

الخروج

(1)

أين أنا؟ أنا، للكلمة وقع الوجود الفعلى، على غير ما أشعر به
 بالمرّة، رقبتي لا تزال مدفونة بين منكبّي، تحمل رأسي، رأسي، تسلل
 إليه شعاع ضوء، شقّي، فانفجرت رؤية كخيوط حليبيّة تجتاز سديما
 أسود.

أصبحت السماء قرية، تكاد تلمسها يدي، هل صيرت عملاقا أم
 تحولت السماء لحيمة؟ أول ما فتحت عيني رأيت النجيلة تلمع في
 الشمس تحت قدمي، كمنثور ذهب تُلقى به أشعة بلا حساب. بدت
 الأشجار أكثر طولا من المعتاد، كأنها تحاول الابتعاد بأغصانها عن
 روائح المستشفى الثقيلة، هل ارتوت جذورها بالمحاليل وتشبعت بعظام
 الموتى؟

حلّ يومى الثانى، وأنا قابع وراء البوابة، وعندما أيقنت أن الخروج
 من هنا أصبح فكرة لا طائل منها، قلّت مقاومتي بشكل كبير، كنت
 أحاول التمسك بحياتي السابقة، تمددت ذاكرتي حتى كادت أن تصبح
 كل شيء، أما ما أنا فيه فلا يخرج عن أحاسيس مفرطة في الخدر،
 أشعر بألى في حلم طويل، صور متواصلة تتقافز إلى ذهني بلا تحكّم،
 يهين لي رؤية أشخاص لا يقتربون مني بشكل كامل، يتحدثون
 وكأنهم في بحيرة، تنكسر أصواتهم، وتهتز صورهم، وأراقى عبرت

الواقع لا البوابة، وصيرت في حلم، ما لم أكن أستطيع تحقيقه هناك في أرضي البعيدة يمكنه التحقق هنا، حيث الأرض غير مستوية وفاقدة للجاذبية، والرؤى تزخر بالألوان والرموز، ومن أمرٌ عليهم ليسوا سوى كائنات لها حقائقها الخاصة، حقائق ربما كانت تحدث على أسطح كواكب أخرى، من حولي يتحرك الناس بالتصوير البطيء، لا يعلقون في معاصمهم ساعات، يتجولون من حولي بلا أبعاد، كرسوم بالماء فوق حائط شفاف.

كان الهواء متجمداً، لا يهتز غصن، ولا تطرف ورقة شجر. جفني، كان فوقهما رصاص مصبوب، منجذبان للأسفل، وعيني بين الرؤية والغيوبة تائهتان، وغبار معلق في الهواء، يتسرّب ضغطه لحاسة شمي، يحشو حلقي، مشبع بروائح العطانة، دمعت عيني وسال من أنفي المخاط. أسندت ظهري على جذع شجرة من الأشجار العالية خلفي وغبت، أصبحت عيني دائرية الرؤية، والرؤية فيها دخان أبيض محب لتغذية الكسل، يدعمه ضباب يُعطي الدخان بُعداً فلكياً، والضباب في زجاجة، والزجاجة كأنها كوكب شفاف يلف في المدارات. مرت الأحداث أمامي كمراكب طيفية، تمشي في بحر مستدير، على حوافه ثلج هش حديث التكوين، مفروش على شكل كثبان. الآن، كل ممنوع يمر ويعبرني، يناجيني برقة المراودة لا عنف الحرمة، الكائنات التي تخطر أمامي رقيقة وغير مفصوحة، لا تعرض نفسها بقدر ما تنساب كتسلل الأكسجين بين عناصر الهواء، في هذه الحياة كانت ممارسات لمس الأجساد وعادات قطف الزهور متكررة، بلا عدد، بلا ثمن، حتى القتل، لا يُشكّل نهاية، فالكائنات المطعونة تظهر في صور جديدة وكأنها تلعب، تعود للحياة وهي أكثر قدرة على فهمها.

كان اليوم على وشك الانتهاء، هل نمتُ كل هذا؟ صحتُ على إحساس قوى بالجوع، أريد أن أكل شيئا مسكّرا، مشبك مثلاً، شمس الظهيرة كانت قاسية، والرطوبة تجعل العرق ير كالصمغ. لم أغير ملابسى طيلة الأيام الفائتة، هل هى أيام منفصلة، أم كانت ملصومة فى أسابيع، والأسابيع تابعة لأشهر، والأشهر فى ذمة عام واحد منصرم، بالخارج، خارج البوابة كنتُ أهتم بعيد ميلادى، كل سنة على ما أعتقد، سنة، نعم، كل سنة وأنت طيب، كانوا يقولون وهم يحملون الهدايا وصناديق المقالب الصغيرة.

لم أتم ساعة مكعملة النعاس، شاركتُ حسن سريره الحديدى الصغير، وغطاءه المهلهل منهوش الخواف، وبرّاده متعدد الوظائف، كانت حياتى داخل البوابة كأنها حدثت بالفعل من قبل، ولا أقصد بكلمة بالفعل أن لها حقيقة تاريخية، ولكنها حدثت هناك، فى حياة أخرى مفترضة لم يأت دورها بعد. كنتُ أعصم نفسى من الاعتراف بواقعى عن طريق اختراع بدائل جاهزة، هذه طريقة تريحنى، تتوافق مع خلقى الخيالية الحاملة، كنتُ أرسم سيناريوهات متعددة لما يمكن أن أفعله، ولا أفعله، فأكون بذلك قد جنيتُ الحسنين، تملكنى إحساس الفعل دون أن أفعل، وكذلك أهرب من العقاب لو كان الفعل مشينا. لطالما جعلت من خيالى مملكة لا تحدّها حدود، أسبح فى الماء وأربط قاربتين بفتلة، وأطير فى الهواء متبعا ضوء النجوم، وأزحف تحت الأرض لأقتفى أثر أسلافى. باختصار صيرتُ اختار حياتى التى أرغبها أولا، ثم أجبر الأحداث أن تتبعنى.

لوهلة، تركّزت في دماغى فكرة الخروج، ولكنها كانت مرتبطة بأبى، بالأدق، مرتبطة برغبة عارمة في اعتراض بطولى أمام أبى، لذلك لا يقل أهمية عن فكرة الخروج ذاتها، أيعترف أبى بنجاحى في شيء ما مهمّ، فالآباء غالبا لا يعترفون بتفوق بنائهم على نحو لائق.

لطالما أحسستُ بأنّى أتفتت، أفقدِزنى وثباتى، تُغير على خيالى بعض الأفكار المشائمة، فقبل المجئى إلى هنا كنت أشعر بأنّى كريستوفر كولومبوس، بل أفضل منه حالا في بعض لحظات الشرود المتفائلة، فهو اكتشف عالما جديدا، يا أنا، فاخترعته، ولكن بعد دخولى من فتحة البوّابة شعرتُ بأنّى ممدى بئس زجوا به في حرب خائبة لا تناسبه، كنتُ أرى جميع المشلد وكأنّها فيلم سينمائى نُزِع عنه شريط الصوت، فأعاد مخّى تدوير الأحداث من خلال الصورة فقط. وبدأتُ أذنى تتنازل ببطء عن خصائص السمع، وعيني تجاريها في ابتلاع كل ما يقابلها من مناظر وألوان.

غمرنى العرق شيئا فشيئا، شعرت بدفء ولفحنى هواء، بارد ومنعش، مرتُ علىّ بعض شخصيّات عرفها، وبعض ناس لا أتذكر ملاحظهم، مروا وهم يرفعون يارق ملوّ، وهىّ لى بأنّى اندفستُ بين أجسادهم المتلاحمة، إذ كانوا يغلقون البوّابة التى دخلتُ منها ولا أتذكرها جيدا. من ثغرة صغيرة رأيتُ نورا، ونتفة من ملابس رجل الأمن، قاومت الفرق فى الأجساد وكثافة اللحم ورائحة العرق، وفُزتُ بعدُ جهد بتوسيع الثغرة قليلا، حتى أصبحتُ بالخارج، أنا الآن بالخارج، وبعد أن تركتُ البوّابة الكبير السوداء قال لى أحد الحراس قبل انتعاشى بفرحة النجاة:

"تذكّر يا أختينا. إذا ذهب الألم ستذهب معه الشهية"

لم أعره أدنى اهتمام، انشغلتُ فقط بتخيّل نفسي وأنا خارج البوابة مرّة أخرى، حاولتُ نسيان كل شيء، كالتي كنت في عربة قطار وجاءت محطة الروول، بالطبع سأنسى الرُكّاب القُدّاميّ بسرعة، كانت الأفكار في دماغي لا تزال تنفث بخارا، ولكنني برغم ذلك حاولتُ نسيان كل ما مر من أحداث.

بالخارج، ومن زجاج نظّارة مغيّش حملق فيّ شخص لا أعرفه، كانت نظراته ثاقبة وإشاراته عصبيّة وفي يده جريدة، لم تكن المصابيح تضئ بالخارج، فصنعتُ الظلال غياما عابرا، ومن الناس تكوّنت كتلٌ تروح وتجيء، روائحهم تسكّع وتلعب مع الألوان، وأعمدة الإضاءة ترتجف كعين مطروفة، تشاور نفسها في نيّة الإضاءة، حواف الأرصفة ظهرت على خجل، وأطياف باعة البيض والصميّط والزيتون، الرائحة الوحيدة التي تشكّلت وامتزجت هي رائحة الانتصار يافلاتي من قبضة الحرّاس.

ابتعدتُ نسيّا عن البوابة، والرجل الذي اختارني من بين الخلق أجمعين لم يُزل من على نظره، ولم يرمش، انتظرت خرخشة الجريدة التي يمسكها، سيطويها ليعلن انصرافه، ولكن الجريدة لا تزال مفتوحة على صفحة الإعلانات المبوّبة، مطلوب فورا.. للشراء بشرم الشيخ.. بمرتب مغرٍ بمؤهلات أو بدون.. سيارة فيات استخدام طيب.. أول يد..

تسلّل رذاذ مياه مُنعش إلى خياشيمي من خرطوم في يد عجوز يرش الأرض. ابتعدتُ عن البوابة والرجل صاحب النظارة والجريدة من خلفي يسير، كدت أسأله عن سبب تعقبي، ولكنّي تراجعته عندما عقدت مقارنة سريعة بين حجمه وحجمي، سيكون الهلاك مصرياً بالطبع عند أي اشتباك فعلي، شعرت بدوار ممتد، وكأنّ دماغى يحوم في مدارات بعيدة، أو يقف عند نخوم كوكب المشتري.

لم يحدث في رحلتى شيء آخر يستحق أن يُذكر إلا عندما التفتُ للملابسى، أنا، صانع الملابس، أنا، عمر التريزى وصاحب محل أزياء الشرق، كان ذلك في زمن لا أستطيع تذكره، كانت ملابسى رثةً بشكل فاجأني، وكأنّها مصنوعة من مادة القذارة نفسها، كلّها ساعات قليلة وأذهب للبيت، البيت، نعم، من المؤكّد أن لى بيتاً. ولكن الرجل الثابت على بصّته لا زال يجد فيّ ما يغرى تأملاته، كان سائلاً شفافاً من الفراء يجذبه ويُجبره على الحملقة تجاهى بهذا الشكل المريب.

شعرتُ بلمس ناعم كالقטיפه عندما تذكرتُ أنّى نجوت من الحبسة، مرّ المشهد أمامى كفيلم سلقوه في المونتاج، مناظر مُتقطّعة وسريعة، أفكارها لا تأتيني مجرّدة، ولكن تدعمها صورة حسية مرتبطة بالخاطر حاولت إبعاد مفردة النذالة عن تفكيرى، فأنا نجوت وحدى، بدون رفيق، أو قريب، تركتهم في حبسهم يضربون رؤوسهم في الجدران وفرحت يافلاتى من قبضة السجّانين، حتّى أبى، تركته، للحق لم تكن نذالة، ولكنّي نفدت بجلدى الذى أشعر به الآن، أنحسسه سليماً مُعافى، وأتحّله كيماً مُعبأً بحشو، أجهزة رخوة وأمعاء تنقبض

وتبسط وقلب يدق، أنا نفدت بكل هؤلاء، الذين هم أنا، لا أعرف أنا غير هذه الأشياء التي يمكنني لمسها ووصفها.

أعمدة الإضاءة لا تزال مطفأة، لم أر من الناس ملاحظهم، فقط كنت أتابع عن بُعد الحيز الذي يشغلون، أجساد هائلة وتائهة تعبر الشوارع بنصف وعي، يمرون أمامي ولا أستطيع تحديد سرعاتهم، كانت استفساراتي جوائية لا أنطقها، ورأسي يزخر بالأسئلة عمن حولي، من أين جاءوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ لم أشعر بألّ متفاعل معهم، كنت كشخص يلبس طرطورا أحمر دسّوه بين أشخاص يلبسون جميعا طراظير سوداء. ربما يجب على الوصول بالفعل لنقطة ما، ثم بعدها يشتعل خيالي تلقائيا. نظرتُ في يدي فلم أجد آية أمتعة، شعرتُ بألّ بقعة معتمة قُرب من النور الذي سيبيّن حقيقتها.

هذني الإرهاق والتعب، كأني كنتُ أتدرب على ركوب الخيل طوال الليل. كان طوق النجاة الوحيد هو خروجي من البوابة، وخرجت، وكانت البلوى الحقيقية هي بقائي داخل الأسوار، والآن، أصبحت البوابة بعيدة وفي حجم علبة ثقب، والمبنى الكبير يظهر كـ"ماكيت" لمشروع في شركة تعمير، كان الناس داخل البوابة يتلقون تعليمات صارمة وينفذونها، ولم المواربة؟ كانوا يتلقون أوامر لا تعليمات. يعيدون إنتاج الكلمات بجمل وأغراض مختلفة، فإذا ما قالوا "اتق شر الحليم" فهم يقصدون أنفسهم، وإذا ما قالوا "وقودها الناس" كانوا يتحدثون عن الآخرين.

الرجل الذي لا أعرفه يسير من خلفي وكأنه يراقبني، ظلّ يقترب شيئا فشيئا حتى كاد يحفّ في ملابسي، ثم قرر كشف هويته فسألني:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

- لا.

قلت وأنا متهيّب، لم يكن في نيتي الرد، نحت جريدة مهلهلة فقط
تقتز في يده، خرخشتها مُزعجة، هُيى لى بأنه لعصها في يده وحوّها
لكومة غير مستديرة في حجم رأس، رمى الرجل المجهول في وجهي
الكومة، ومدّ يده الأخرى بعضا سوداء معقوفة المقبض وأعاد على
مسامعي سؤاله:

- هل أنت سعيد إبراهيم؟

وما أن تجسّد أمامي بكامل هيئته حتى هبت الإضاءة قوّة من
الأعمدة واشتعلت في وقت واحد، ظهرت الدنيا كلّها باذخة الأنوار،
كشمس انفجرت وتوزّعت فتافيتها الجمرية على حيز رؤيتي.
واختفت البوابة، اختفت تماما، واقترب الرجل أكثر، الضوء الشديد
جعل كل الأشياء كسحاب أبيض مُشربّ بحمرة برتقالية تتشعب فيها
عروق زرقاء. سألتني الرجل مرّة أخرى:

- أنت سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟

- لا

- وما اسمك إذن؟

وبارتباك شخص شريف يكذب للمرّة الأولى اقتربت منه، رمى
الرجل العصا ثم لقفها بحفّة، وقف يلفّ ويدور كراقص يستعد لجولة
تخطيب، بدأت الرؤية تتضح قليلا، وعلى مهل بانت معالم الأشياء،

ضحك الرجل الذى بدأتُ تحديد موقعه فى المكان، تشكَّلت ملامحه من حركته المستمرة، كان يلبس زِيًّا يشبه "يونيفورم" ورديا ملصوقا على جسده، رفع يديه فى الهواء، طوحهما وأخذ يطرقع ياصبعيه الوسطى والإبهام كمن يستدعى "جرسون"، بان من تحت إبطيه شعر أسود مُنْفَر، وبين فخذيه أيضا، الآن أراه واضحا، كان الرجل عاريا، عاريا تماما، ابتعدتُ عنه قدر استطاعتي وانطلقتُ أقول بلا وعى كامل:

- اسمي عمر سعيد إبراهيم.

* * *

ثم تشعر بأن جفنيك مضيقين، وأن كل الجدران من حولك لها ملمس ناعم، تخرج من مسامها أنوار خافتة وبليدة، الآن، بين الحلم واليقظة أنت، تتأمل ما يدور حولك، وكأنك تؤسس لموقف جديد سيتغلب على كل ما مر من أحداث، تشبه حياتك شبكة رميتها لجمع نفائس الأسماك فحصلتُ مُخَلَّفَات البحر، طال صبرك وأنت قابع خلف البوابة فى انتظار الفرج.

وترى بعينك التى سيقرقض فيها الدود، طابور الزائرين الذين دخلوا المستشفى بكامل إرادتهم قبل أن يكتشفوا أنهم محبوسون. ثم أظلمت الساحة الكبيرة ولم تر إلا حيز الناس يتحركون فى كل اتجاه، بشر جاعوا من كل الأماكن، مشكلتهم الوحيدة أنهم يريدون علاجاً، أو يزورون أقارب يحتاجون لمن يعوِّدهم ويعطف عليهم، فوجدوا أنفسهم تحت حُكم الحراس الجدد، كان حُكما ظاهره

الرحمة والكلمات الفضفاضة عن الروح والجسد والمبالغات الفلكية عن السماوات السبع والأراضين السبعة، وحكايات موصولة عن البؤساء الذين لم يسعفهم الحظ بأن يكونوا مؤمنين، أما باطنه فيشهد عليه انشطار أبيك.

أسبوعان قضيتهما في صحبة الحراس وتوقفت كثيرا أمام ما يشغلهم، ما يملأ أدمغتهم لا يمكن رؤيته إلا بعين الخيال والحدس، فكل ما يهتمون به هو خارج نطاق الكرة الأرضية. أحدهم تحدث معك طوال نصف يوم عن الخلق الأول منذ سيدنا آدم مروراً بسيدنا إبراهيم وسيدنا نوح وسيدنا موسى، إلى آخر طابور قدامى الصالحين الذين كانوا يتميزون بكاريزما معينة لا قبل بها لبشر عادي مثلك ومثله، اجتهد الرجل في الحصول ولو على قطعة من أطلال الكاريزما لحسابه، ولو حتى ستقتصر على نظرات الإعجاب به أثناء الحكى، ولكنه كان غشيماً وبعيداً كل البعد عن أى نجومية، وبعد أن فشل في إيجاد شيء يبهرك به صمت، ثم استعاد الكلام مرة أخرى، ولكنه تجاوز الفترة التي تعيشها وقفز قفزة واسعة جداً، حيث وصل مباشرة إلى يوم القيامة، وصنف الناس على حسب رؤيته ما بين صالحين سينعمون وفاسقين سيشربون المر ويدوقون العذاب والحميم، وبذلك فقد قسّم الحياة الطويلة العريضة لمرحلتين فقط، خلق آدم ويوم القيامة، وتحاول أن تنبهه لأن الفترتين بينهما فترة هامة جداً لا يمكن إسقاطها أبداً، وهى المرحلة التي تعيشونها الآن، الفترة التي أعطته الأرض فيها فرصة الوجود وموهبة الكلام، ولكن عبثاً حاولت، وعبثاً رد:

- هذه مرحلة تافهة. حدثنى عما هو أهم. أهم يا أخى.

وكنْتَ تصرخ بالليل وأنت تقول:

أنا هنا. أعيش وأتنفس وأحلم. أنا عمر سعيد إبراهيم.

وتترك الخيزرانات بصماتها على جسدك، وليلتها لم تنم، ليس بسبب الأرق أو الصداغ، ولكن بسبب الضرب تورّم كل جسدك، وقبل أن تنام جاء شخص منهم لا تعرفه وداوى جروحك برقة متناهية واعتذر عما قاله زميله.

ثم ترى كيف رسموا الخطّة لإخراج الناس من هنا، خطة تبدو من إنتاج قريحة بدائية، ففي اليوم التالي نودى عليك في كشف يمسه الرجل الذى كان يعذبك بالأمس، ووجدت نفسك ضمن فريق كبير مِمَّن هم في نفس حالتك أو يقاربون، رصّوكم في طابور طويل خلف البوابة، رأيت المنظر بوضوح للمرّة الأولى منذ مجيئك إلى هنا، وكان يقف بجوارك زملاء في الحبسة أكل منهم الخيزران الرفيع وشرّب منهم الكراييج المنقوعة في الزيت، كانوا يمشون بعجز ويتمايلون كبيوت صغيرة يهزّها زلزال. وبعد أن تمّ عليكم أمام البوابة وقف رجل بدين جدا تقبّ إليته من الخلف بوضوح، ويعلو كيرشه من الأمام، لا تستقيم له جُملة بسبب النهجان، ولا يستقيم له عود من جراء الرعشة المتواصلة وعدم التحكّم في أعصابه، كان مجرد سحب الشهيق يجعله شبيها بالهوّاية الريش التي كانت ترقص على رؤوس السلاطين القدامى، ولكن من مهافته كان

يبدو الرجل حائزا في المستشفى على مكانة ما، اقترب من الطابور
المُكوّن من عشرة أشخاص وقال:

هكذا حاولنا إصلاحكم. وهكذا فشلتم في رؤية ما نراه،
حسّكم وعينكم أن تتكلموا عن فشلنا نحن، ولكن تذكروا جيدا
بأننا حاولنا كثيرا. وأننا في يوم ما سنقف جميعا أمام أعمالنا.

بدأ صوت الرجل يأخذ منحى تدريجيا للسخافة. الشمس
متعامدة عليكم، تفككت ارتباطات الكلام في دماغك من سخونة
الجو، وشعرت بحول مفاجئ، وقبل محاولة استيعاب التعليمات
أضاف الرجل:

لقد قررت إدارة المستشفى أن تترككم تخرجون، ولكن
بشرط.

وجتمت جميعا وكبست على نفوسكم طبقة ثقيلة، توقفت
صدوركم عن التنفس وأرهفتم السمع فأكمل البدين:

- ستتكلّف بتمزيق كل ما عليكم من ملابس. وستخرجون من
هنا عرايا كما ولدتكم أمهاتكم.

(2)

بعد أن رأيتُ ما لا يجب أن يُرى في الرجل توقفتُ قليلا، لعلّي أحلم أو التبس على الأمر، أو اختلطتُ الحقيقة بصور مُتخيلة، تأملتُ الرجل الذي لم يبدُ عليه التعجب. نظرتُ لملابسى وتفحصتها، شعرتُ بأنّي مخلوق رخوا يتفوق داخل صدفته، أو أننى لا علاقة لى بهذا المكان، ربما استبقون فى مكان آخر وجنت إلى هنا كديكور أو ورد زينة. أقف حائرا وأنا أحاول اقتناص اللحظة. احترتُ وشعرتُ بتفاهة أسباب وجودى، إحساس يصعب وصفه. جَمَعْتُ شجاعتي ووقفتُ أتحسس ياقة قميصى، وبرغم قذارها فحشوها متماسك، والجاكيت "الفاير" من فوقه يفى بالغرض، فالملابس التى تمنع البرد تمنع الحر أيضا، هكذا كانت تقول أمى.

كان بنطلونى متسخا ومجرحا لدرجة يصعب معها معرفة لونه الأصيل. وكانت عباراتى الداخلية التى هى قيد التشكل مسكونة بالهواجس، فالرجل لم تحرك فيه شعرة، لدرجة جعلتنى مُخرجاً له، كيف كان يقرأ الجريدة وهو عارٍ بهذا المنظر؟ لم ينتظر حتى تختمر الأسئلة التى أعددها له داخل دماغى، ولكنه هجم علىّ وباغتنى بسؤال:

- متأكد من أنك لست سعيد إبراهيم؟

- نعم. أنا لستُ هو ولكن لماذا تسأل؟

كانت إحدى قدميه مُعلّقة على الرصيف ومدسوسة في فردة حذاء واحدة، أنزلها واستوى عوده الضخم في وقفة مستقيمة ثم هجم على كمن سُحرّ رهائن وقال:

- سعيد هو الأمل الذى انتظرناه كثيرا خارج البوابة.

لم يكن هناك سبب وجيه واحد لأن أصدقه، خاصة وأنه كان يقول كلاما محترما ورصينا بينما هيته نابية، اتكأ الرجل العجيب بمرفقه على كتفى وكأننا صرنا صديقين، ثم قال بنفس نبرة الصوت الفخمة:

- سعيد إبراهيم تحمّل الكثير من أجل الناس العادية أمثالي وأمثالك. فهل يكون جزاؤه بعد ذلك ألا أسأل عنه؟

عندما كرر الرجل اسم أبى ذُكرنى بأنى متاهى الصغر، فهذا الغريب يسأل عنه، بينما تركته أنا خلف الأسوار، ولم أفكر إلا في نفسى، ربما كان هذا الرجل مبعوثا لإيقاظ شموخى الذى انطمس في أزمنة غابرة؟ ولكن لماذا كل هذا التركيز معه، يمكننى الانصراف عنه وعن منظره المُخزى هذا، ويمكننى أيضا الابتعاد عن هذه المنطقة والبحث عن أجواء جديدة أرتب فيها لترك هذا العالم العجيب للأبد، فالوجوه التى أراها ليست جديدة، حتى ولو أقابلها للمرة الأولى، تبدو مُكرّرة ومرتيّة لآلاف المرات، كالطعام المضغوف سلفا. لكنى برغم ذلك لم أستطع الهروب، أصبحت متورطا بشكل ما.

كلما لمحتُ الرجل العارى اختلط الجذ بهزل فى رأسى، لا أدرى هل أضحك على منظره أم أتوقف أمام الأسباب التى أوصلته لذلك؟ أحسست بأن محاوراتى الداخلية أكبر من أهمية المشهد بالنسبة للرجل، فقد كان أليفاً إلى حد كبير، يهرش بين فخذه فتترجرج بضاعته كعجين خمران، ويهتز هدهد الكيران المرقطان بالنمش، لم يعد باستطاعتي تخمين ما سيحدث بعد دقيقة واحدة؟

كانت الصورة بالكامل مُضَيِّبة كدخان تحت المصابيح، أو كالدخول على عتبات حلم. لم يعطنى الرجل العارى فرصة لكى أختلى بنفسى، رفع عصاه للسماء، تيسستُ يده لحوالى دقيقة كاملة على هذا الوضع ثم قال:

- السماء أعطتنا سعيد. سيدنا سعيد. ونحن نرفض العطية. تحيل؟

لم أرد. توقفتُ عن الكلام محاولاً تدبير كلمات تجعل هذا الكائن ينصرف عني، لكنه استغل صمتي وانفتح:

- البشر ظالمون. كلهم ظالمون. حتى أنت وأنا. ظالمون. تحيل؟

قال الكلمتين الأخيرتين وكأنه يتابع أطيافاً وهمة مرسومة أمامه على الهواء، ثم كثر تكشيرة شخص جرد دكانه فاكتشف خسائر فادحة. لا إرادياً كنت أقارن فى كل دقيقة بين ملابسى وغريه، أقارن بين جاكيتى "الفاير" ولحمه المكشوف للذباب، أدار الرجل لى ظهره وهمم بالانصراف.

كان يتحدث عن شخصا آخر غير أبي الذي رأيت، وكنت أفوت له كلاما كثيرا، وكأن ما أنا فيه هو نتيجة طبيعية لثورة الزمن وانفلات العقارب من تروسها الدوارة، فقد كان بعريه هذا يبدو كما لو أنه سقط من ثقوب عصور غابرة.

اتكا الرجل بمرفقه على كتفى مرة أخرى وكأننا صرنا أصدقاء من جديد، ثم رفع زوايا فمه كآله يستعد للابتسام، ولكنه تراجع ولم يتسم، أخذت ملاحظه شكلا صارما وهو ينظر إلى نظرة شفقة ويقول:

- لماذا تقف أمامي هكذا. عاريا؟

* * *

ويقترّب منكم الرجل السمين وهو يمسك بمشرط جراحی، تظن بأنه سيشق جلودكم، تبددت المخاوف عندما مدّ يده لأول شخص في الطابور وشق قميصه من قُبته، بعد الياقة بقليل سرح المشرط فجعل القميص كضلفتين تم فتحهما على المصراعين، فقال الرجل المذهول وهو يشير إلى زراير قميصه:

يمكن فتح القميص في أقل من دقيقة، لا داعي لتعبك.

وعندما بدأ تخليص الزراير من العراوى أمسك الرجل صاحب المشرط بيده وقال:

ليس المقصود هو خلع الملابس. ولكن تدميرها قبل حرقها. لكي تمشوا في الأرض بسوءاتكم ولا تجلدوا من يستر عوراتكم.

صمت الرجل وكلّ منكم تحيّل نفسه واقفا ينتظر استكمال توقيع العقوبة، كانت الوقفة مُهينة، ولكن الرجل طأطأ رأسه ومط شفتيه وأغمض عينيه، لم يفق إلا بعد أن سأله صاحب الشرط:

ما اسمك؟

فريد.

بعد قليل ستكون فريدا بحق. انتظر قليلا.

عندما انتهى صاحب الشرط من شق قميص الرجل فعل نفس الشيء مع فائلته المخرّمة البالية، سحبة واحدة تَبَعَهَا صوت تمزيق كآزيز سرب ذباب، انتهى صاحب الشرط من الجزء الأعلى ورماه كبداية لكومة ستجتمع فيما بعد، وجاء دور الجزء الأسفل، خلع عن البنطلون الحزام أولا، ثم لفّ على كَفِّه جزءا كبيرا منه، وعندما تمسك الرجل بينطلونه أوسعاه ضربا بالحزام الذى كان يزيّن خصره منذ لحظات، همدتْ عزيمة صاحب الشرط وتصلّب الرجل نصف العارى، أصبحتْ إرادته خارج نطاق الخدمة، تخلّت عنه وتحول بعد انصياعه لشيء لا روح فيه. ضرب الرجل الغاضب مِضعه فى كمر البنطلون، ثم شد يده بخفّة فتهلّهل الكمر والجيب حتى قدمى الرجل، سلّت البنطلون بسهولة وكأنه يقشر إصبع موز، لم يتبق للرجل إلا لباسه الدّمور. فى البداية، قاوم الرجل، سحب قطعة القماش الصفراء المتسخة التى تستره، ولكن أول ما رأى الشرط يقترب من عينه عاد صاغرا لسيرته الأولى، وضرب الرجل الموكل إليه تعريتكُم اللباس

فسقط كقشرة ترمس تَخَلَّتْ عن حَبَّتِها، ووقف الرجل عاريا، ولكن ليس كما ولدته أمه، بل أبأس حالا وأرث هيئة.

كَوَّم صاحب المشرط ملابس فريد، أخذ يساوى بينها بيوز حذائه، تجرّد زميلك من أى تعريف، اسمه وسنّه ومكانته، وكأنّ الملابس احتوت على كل الصفات، أصبح اسمها فريدا، وتحول فريد للأشياء.

ما فعله صاحب المشرط مع فريد كرره معكم جميعا. وكان حَظُّكَ لا بأس به فى مسألة التعرية، فقد كنتَ الأخير، قُدِّرَ لك أن ترى كل من فى الطابور وهم عرايا، رأيتمهم لمُدّة طويلة خاسئى النظرات حاسرى الرؤية مبهوتين، ورأوك بعريك مدّة قليلة جدا قبل أن ينتهى الرجل من تقشير ملابسك بالكامل.

"لِمَ كل هذا النضال من أجل حياة بائسة لا تستحق المقاومة؟"

تسأل نفسك، وقبل الاهتداء لإجابة كان طابور العرايا ينتظم ويستعد للخروج.

لَمّا تعريتم جميعا خفّ إحساسك بأن هناك شيئا ما مختلفا، أصبحت لكم حُرّية الحيوانات البرّية، كان إحساسا جميلا، منعشا، دفء الشمس مع تخلخل نسمة الهواء داخل كُل فتحاتك شكّل شعورا لذيدا، كانت السيدات الملتزمات يعانين الحر والبدانة خلف البوابة، وكان البدين فيكم يدخل له الهواء من كل الفتحات

والمسام، لوهلة أحسست بأن الرجل صاحب المشرط يضرر لكم شيئا من الحسد، فقد كان يلبس جلبابا ثقيلا ومن تحته تظهر قبة جلباب آخر، وفخذه يحبسهما كالسور بُني، والحر الشديد يجعل ملامحه تتر العرق، وتنشع فوق ظهره خطوطا غامقة من لون الجلباب، لوهلة أيضا، تخيلت بأنه يتمنى لو كان مثلكم، حُرّا.

قبل أن يفتحوا لكم البوابات اقتادكم صاحب المشرط في طاوور جديد، وقفتم شبه ملتصقين، كلٌّ منكم يضع كفيه بين فخذيه كحركة وقائية، لكن سرعان ما تبددت الهواجس ورفعتكم أيديكم عن أحواضكم، عُدتُم تفعلون بأذرعكم ما كنتم من قبل تفعلون. من يهرش ومن يتحسس شعره ومن يأكل شيئا في يده، وأنت وضعت يديك في وسطك وحاولتُ تجريب الوضع الجديد. أَمركم الرجل بعدم أخذ ملابس من أحد، حتّى لو عُرض عليكم ذلك. هل تسمعونني؟ حتّى لو عُرض عليكم ذلك. قال على عجل ثم انصرف.

(3)

تأملتُ ملابسى جيداً، إنها برغم رثائها موجودة، لم تنزل ملتصقة بجسدى فوق أوساخ المستشفى، أهنّدم القميص وأرفع البنطلون وأضبط وجهة الحزام، ماذا يقصد الرجل إذن بأنى عار؟ كان هو العارى ولا يشعر بذلك، لَمَّا رآنى هل رأى نفسه فى اللحظة ذاتها؟ لم يكن لى وسيط آخر أرى به إلا عيناى المجهدتان من طول النزاع داخل الأسوار. أحسست بأنى مزنوق بين قضيين وقد أغلق على عامل التحويلة سنجة المزلقان، هل افتقر خيالى إلى التركيز الكامل فهياً لى أوهاما لم تكن فى الأصل موجودة؟ بالفعل، لقد انجذبت نحو الرجل العارى وكأله من أهلى القُدامى، نوع من الحنين اجتاحتنى وهو يحدثنى بثقة مزعومة.

كل ذلك يحدث غالباً بسبب الإرهاق. فأنا لا أزال واقفاً أمام البوابة، هل توصّلوا عن طريق حزمة من الحبل الباردة فى هز ترتيب الزمن؟ هل يمكنى أن أستوعب عُمرًا فى ساعة واحدة على الأكثر؟ لماذا أستسلم للوقوف أمام شخص عار لا يدرى لماذا وصل لهذه الحال؟ كنت كمن يرى العالم عبر ألواح زجاجية تُكسّر الضوء وتفتّت الأصوات.

لو وقع بين يدي الآن مصباح سحري سأطلب منه مطلباً واحداً لا غير، أن أتكلّم ويسمعي أحد، ينصت إلى شخص واحد يهتمه كلامي، كانت تسكنني ثخمة تعبيرية، فائض من الأوصاف والتشبيهات يكفى ألف كتاب، وكبت في التعبير يضعني على حدود سديم جهنمي من العدم المطلق، كنت أود لو يصل صوتي خارج حلقى، ثم ينتشر خارج مسكني، وبعد ذلك يستحوذ على مسامع من هم وراء المدينة، ثم المحافظة، ثم خارج حدود الوطن، ثم الوطن العربي والكرة الأرضية، ثم يتفوق صوتي على الجاذبية والغلاف الجوي، يتجول ليصاحب الكواكب السيارة ويفتت بين المجموعات الشمسية اللانهائية، وينتشر بعد أن يخرج للبراح الكبير، ويطوف بين حزم المجرات، ثم يصل ساكناً مستقراً بين مسام الغازات وركام الفتافيت الكونية التي لم تحصل حتى الآن على مُسمّى بشري. هذا ما يستحقّه صوتي، ما يستحقّه تماماً.

كنت كمن يصارع كابوساً ويجتهد في الاستيقاظ، ألتح عيني على المصراعين، أحدّق بقوة فلا أرى شيئا جديداً عما رأيته من قبل، فأهول هرباً من الأحلام المزعجة لأقع في شرك حياة باهتة لا معنى لها، يغلقها باب واحد موحد باستمرار، وكلما حاولتُ فتحه ليدخل سلخه نور وخذثني مساميره الكثيرة، مسامير تُكوّن الدقائق والساعات والسنين، وعندما أترك الباب تنفلق السلخه بنورها وأعود كما كنت أبحث عن مخرج.

تدور الأفكار في خيالي كمفردات لغة غريبة، أجهل فيها التراكيب والأفعال، أشعر بأن شخصاً غيباً يحدثني سرا عن أشياء غير مترابطة،

فيتفوه بين الحين والآخر بشذرات من لغة ربما أعرفها، أو تُهَيِّى لى ربكى ذلك، وكانت العضلة هى غريلة كل الكلام وتركيبه من جديد. كنتُ خفيفا، كحلم يقارم تفسيرات الواقع، فالوضوح، حتى فى الضوء مزعج، تحتفى الأحلام بالظلال ولا تنشغل بأصوها، تكسب قيمتها من غياب النشاط العقلى، فهذا الأخير يكون مخدرا، تحلّ عنى الجاذبية وأصبح كالريشة، لا يتحمّل عقلى فى الأحلام عبء الأفكار، ولكنه يسعى دوما للتخلص منها عبر الرموز، فأصحو خفيفا وفارغا قبل أن أتلوّث بأفكار جديدة، أتمطّع، أشعر بأن فى حوذتى أفكارا جديدة لا يستوعبها عالمى، تطل دائما على فناء واسع، أوسع قليلا من مجرة.

عندما فاجأنى الرجل صاحب الجريدة بعزى توقفتُ عن التفكير للحظات، تخوّفتُ من أن يكون منظرى كما تنقله إشارات مخه، مشيرا بأى شكل، أو على الأقل مقززا، تمتيت الدخول فى كهف على مقاسى بالضبط، ومن يرد أن يرائى يرائى وأنا مُغلّف بالكهف، أخشى أن أبدو عاريا وحقيقرا، ففى الوقت الذى كنت أشفق فيه على الرجل صاحب الجريدة من عُرِيه؛ كان هو الآخر يشفق علىّ لنفس السبب، وكأننا فولة وقُسمتُ لنصفين، ولكن وجهى كان مناقضا لوجهه، فأنا عابس الملامح وهو مبتسم أغلب الأوقات، أنا أفكر فى أمور عويصة وهو لا يشغله إلا سعيد، أبى.

بعد تخيلى لعزى شعرت بجسدى يخضع بشكل ناعم لتغيرات فورىة، أحسست بأبى متناهى الصغر، وآبى أموج فى سوائل وغازات

وأركب على قذيفة مدفع، وكان معادلات جديدة تتخلق لتسمح بإمكانية تشويه الزمن، كانت بينى وبين نفسى مسافة بعيدة، تفصلنى فراغات غير محددة، وكأنى بالفعل أصبحت شطرين غير متساويين، تحتجب عنى معرفتى الحقيقية ببعضى، وتقف عند باب الخواطر، أشباه أفكار وبقايا أصوات تنادىنى بتلقائية ناعمة:

- تعال.. تعال.. اقرب ولا تحف.

كانت صورة الرجل تنكسر قبل أن تأتى، ككتلة معتمة تقطع مسار الضوء، ولكنه برغم غرابته فقد كان يُشكّل ومضة فى قلب عتمة، أو مدينة شُيدت أمامى فجأة وأنا أسير فى صحراء قاحلة، صورته وهو عار ترسبت فى قعر مخى، وفى نفس الوقت كنت أتحلّل نفسى أنا العارى، هل كل ذلك بسبب تأكيديه بأنه يرائى عاريا؟ ربما كان العيب فى نظره، وبعد قليل سيطلب له الاعتذار وسيقول لى بصوت خجول "العتب على النظر يا أخي"، ولكن ما أكد استحالة ذلك أنه كان مبتسما ابتسام المنتصرين، وجنتاه ترفعان إطار النظارة بشكل دائم، لم تفقد ابتسامته مسارها إلا عندما تأملته بقوة.

حفت فى عربات أجرة كانت تسير مصفوفة، لم أرها إلا الآن فقط، وكان شينا من التعمية البصرية اجتاحتى لمدة طويلة من الزمن، حتى الزمن لم يعد بإمكانى استيعابه، وكأنى أجلس فى كايينة قيادة تسير بى، وليس لى عليها أى سلطان.

ماذا حدث منذ قليل؟ هل يمكنى استعادة المشهد من أوله؟ شقنى سيف ضوئى مفاجئ فرأيت الرجل عاريا، ورأى عاريا. من منا

العارى، ومن متا ما زال يرتدى ملابسه؟ إحساس مُعقّد يلزمه خيال،
لُغز يشحذ كل طاقته ليتجلى أمامى حقيقة تقف على قدمين، هل تولد
الحقائق أم يتم اختراعها؟ كل ما ندعى بأنه اليوم حقائق كان بالأمس
فرضا يتلعثم صاحبه فى طرحه، هل يمكن العودة للوراء عبر الزمان؟
لقد رأيتُ هذا الرجل العارى وهو يدعى عرىً فى مكان ما، أو زمان
ما، ليست الأماكن والأزمنة التى عرفتها من قبل، لكنى رأيتُه فى مكان
يشبه الحلم، وزمان يشبه ألواح زجاج مُتكسرة يغلى من تحتها ماء.

جاءنى بنفس وقاره الذى لا يتناسب مع لحمه المكشوف، ربما رأيتُه
عبر ثقب فى قمر أسود، وربما لم أره حتى الآن، وما يحدث أمامى لا
يخرج عن كونه نوعا من الخدس أو التمنى، وربما الاستباق بقفزات
غير مرتبة.

تحوّل السيف الضوئى إلى آلاف من سيوف ضوئية سريعة تتراشق
فى الأرض التى أقف عليها أنا والرجل صاحب الجريدة. اشتعل المكان
بالأضواء الصادمة، كان يمكنى رؤية ذرات الغبار فوق كفى من شدة
الأنوار، وكان يمكنى كذلك أن أتحوّل لنجم بارق بسهولة. ولكنى
بشكل مفاجئ رأيتهم من حولى يقفزون، ينطّون فى صخب كقروء
مُدربة، ابتعدت بسرعة، عدت فى اتجاه البوابة، تمسّكت بها، التف
حولى جموع يصيحون فى نفس واحد:

— لماذا تقف هكذا عريانا؟ لو أردتَ ملابسنا سنخلعها من
أجلك. ولكن لا تقف هكذا يا مسكين. فرؤيتك بهذا النظر تؤذى
مشاعرنا.

لم يزعجني هجومهم، ولم يزعجني وصفهم بأنى عريان، ولكن ما أزعجني حقاً هو منظرهم، فقد كانوا كلهم عرايا، لا تستر أجسادهم فتلة.

* * *

عندما طردوكم بدون ملابس خارج البوابة كنتم مرتبكين إلى حد ما، انعطفت فانعطف معكم المستشفى، ثم اختفى المبنى خلف ظهوركم، كانت بقايا النوم تنقطر من أعينكم، وحُمرة بشراتكم دليلاً على السهر المتواصل والقلق المتقطع. وقفتُم تحملون في الأول طاقة كبيرة سالبة، سرعان ما تحولتُ لحركة ونشاط ربما ليخفى ربكتكم، كنتُ كمن تحالف على تفتيت الإحساس بالوقت، أصبحتُ خارج البوابة في زمن لا يتعدى رمشة، وأحسستُ بأن السجلات التي تُخفي حقيقتك ربما حُرقت قبل قرن من الزمان، عندما كان لك جلة مُتعبة ومعها ابنتها التي هي أمك، ماتت إحداهما وتبقت الثانية، لا يمكنك تحديد مَنْ منهما ذهبت وتوقف بالنسبة لها الزمن، ومن منهما ما زالت تدور في أفلاك الساعات وتروس الوقت؟ ظَلَّت واحدة منهما تتواصل مع الأخرى التي توقف نشاطها واختفت هيئتها، لم تختفِ إلا عن الأنظار، ولكنها كانت متعلقة في جزء نشط من خيالك، تأتي راکبة على حصيرة ممتدة مكونة من ثمانى ساعات هي زمن النوم، تنشط الذاكرة بقوة عندما يتحرر الجسد من طاقته تجاه ما يرى ويحس، وتصبح هناك عيون أخرى ووسائط ترى كل شيء هلامى الهيئة والملمس، كانت كل الكائنات من أجسام وأشجار وألوان يمكن حملها من مكانها بسهولة، ويمكن أيضاً بلفتة على الوسادة التحرُّر من كل شيء ونقله

بشكل فوري لمكان آخر بمنتهى اليسر، تدخل أماكن كثيرة، تقف على أرض غير ثابتة، تقول ما فيه النصيب ثم تتوه في غيامات دخان أبيض ينتهي بذيل برتقالي.

سرتم سربا من العرايا في الاتجاه العكسي للبوابة، كان لكل منكم اهتماماته الفكرية التي تشغله وتماماً فراغ الطريق.

أول ما توارد أمامك كانت صورة جدتك، تذكّرت الآن فقط أنها هي التي تبقت على قيد الحياة بعد موت أمك، ولكن أين جدتك الآن، هل لا تزال حية؟ مع توغلك في المسير تذكرت التفاصيل، رأيت كل ما كان وسألت أسئلة على قدر كبير من الإدراك، كيف أصبحت ترى الأذرع المتطوّحة أمامها، هل لا تزال تشتتني التهامها؟ تركتها في مستشفى المجانين التي كانت أمك تسميها مصحة، تتذكر جيداً هذا اليوم الكئيب، ولكن هل جدتك لا تزال حية؟ هذا هو المهم، بالطبع لن تذهب للبيت لتكلم نفسك، هه، هل ستحدث نفسك؟ بالطبع أنت لا تحتاج لمستشفى، ولكنك تحتاج لراحة، راحة طويلة، تعود بعدها لمرحلة ما قبل البوابة، لا تدري هل توقف الزمن بالداخل، أم مر عليك أسرع مما يجب؟ المهم، بأنك الآن بالخارج، ماذا يجب أن تفعل لتشعر أنك حر؟

بالليل كانت أجسادكم تلمع لمعة مثيرّة، كأنها مُشبعة بزيت مضئ، تحررت تماماً من ضم يدك بين فخذيك، وبالتدرّج صارت وظيفة الذراعين هي التطوّح يمينا ويسارا كأى رجل عادى، حاولت حلس السبب الذى لأجله جعلوك عريانا، ولم تصل لأى نتيجة، فتركت التفكير في الموضوع برّمته.

بعد توقفكم أمام الكوبرى غاب المستشفى عن الأنظار، وبدأ كل منكم يسأل الآخر سؤالا تقليديا:

أين طريقك؟

بل أين طريقك أنت؟

وبدا زملاؤك المؤقتون بالإشارة إلى جميع الاتجاهات في وقت واحد، وكان طريقك أنت معروف إلى حد ما، فـ"الميكروباص" الذى جاء بك سيحملك ويذهب بك فى الاتجاه العكسى. تركتهم أو تركوك وأصبح عليك أن تجتهد وحدك فى التذكّر. وقفت على المحطة وبجوارك سيدات ورجال وعيال، لم يلتفت إليك أحد برغم غرابة هيئتك، اقتربت من رجل يقف وهو يحاول إشعال عود ثقاب:

هل يتأخر "الميكروباص" فى مثل هذا التوقيت؟

سألته، فأجاب الرجل والسيجارة تهمتز بين شفتيه:

زمانه فى الطريق.

لم تكن إجابة على أية حال، ولكنك اخترت رد فعله عند رؤيتك، لم يكن هناك ما يثيره أو يستدعى عجبا فى نظراته أو نبرة صوته، اقتربت منك سيّدة بطنها أمامها شبران، حكّ بالونها المنتفخ فى مؤخرتك، فنظرت إليها وأنت تتابع عبورها، رمت عليك نظرة سريعة وقالت:

- لا تؤاخذي يا أخى.

ثم بعد ذلك انصرفت كأي امرأة محترمة تعتذر عن موقف عادي. وكنت تود الخروج من المواقف المحرجة وأنت مجبور الخاطر. بعد الأرق والإجهاد المتواصل تمنت الحصول على آية مسرّات، فقد كان تركيزك مُشتتا وتفكيرك متوقفاً عن النشاط، نعتت من المراوغات وفقدت شِعاب أعصابك القدرة على الشم.

جاء "الميكروباص" وأمامك بالضبط توقّف، فركبت، وتحرك، وفي أقل من طرقة إصبع وصلت، فترلت، وتذكرت بأنك لم تدفع الأجرة، ولكن شغلك عن دفع الأجرة شوشة ذرة حمراء تبص من شبك بيتكم القدم، طلّت الملامح التي تحفظ تفاصيلها جيداً، جدّتك، أغلقت ضلقتى الشباك بشراسة، اختفت الحصيرة الشيش وظهر مكانها الرأس بكامل هيئته وذكرياته، بدأت سنتها الوحيدة تدق لنتها بقوة، وبدأ فمها استلام وظيفته بعد عطب طويل:

- أنت جئت يا زفت الطين؟

(4)

وهكذا أصبحتُ كبطة سوداء تعوم في بركة كل ما فيها بط
أبيض، ولكنهم يرون العكس ويريدون إقناعي بما لديهم من
معلومات، الناس الذين تجمهروا من حولى كان لوجوههم لون باذنجانى
مصقول، ولكنه برغم ذلك غير مُخيف، أعينهم نجلاء وكأنها مختصة
بكشف أسرار مهمة، توحى هياقم بأنهم قوم يصلحون لنشر الإجابات
أكثر من طرح الأسئلة.

كنت أشم رائحة اللحم البشرى بمجرد رؤيتهم، رائحة يصل يُقلَى
على نار هادئة، تتخللها رائحة دخان وزيت طعام محروق، وفرو ماعز
في أول درجات الشياط، يختلط كل ذلك بغبار قرقة خفيف، تنتصب
أعصاب الشم في مخي فأتبين، إبحاءات بصرية تنقل الرائحة إلى لون،
فأتخيل ما تبقى حتى يمكنى ترميم الصورة وتأكيد انطباعها المرئى،
فقدت الكلمات جرسها وأصبحت الصورة هى المسيطرة على
إحساسى، تُهتُ بين شعاب الشم وكرنفالات الألوان، بين الرؤوس
الصلعاء والمحتظة بشعرها، وبين الأجساد البدينة والأخرى الفاقدة
لشحمها، وبين البشرات السمراء والأخرى الوردية، لم أعد أدرى
ماذا تعنى كلمة مثل ملوخية، أو ذراع، أو دفاع. مدينة. مدفع. قُبلة.

قنبلة.. سيطر على مشهدى الضيق الذى أتلعثم فى اجتيازه، تراكم التفاصيل يُشكّل الشخصيات تدريجيًا، شخصيات يُخال لى بأنى كنت أعرفها فى زمن ما ولّى وانقرض، أو لم يأت دورها فى زمن لم تتحدّد وظائفه بعد، أقف وأنا أرتدى كل ملابسى، حتى الجاكت "الفاير" الثقيل فى عز الحر، وأنتعلُ حذاء أسود برباط، وساعة قديمة ورثتها عن أحد أجدادى، يُقال بأنه كان تاجرا كبيرا وله صيت.

لما هجموا على وأصبحت بينهم كحبة شأى أوقعها القدر فى برطمان سُكّر، استسلمت لما سيأتى برضا، اقتربوا وهم يسألون بشغف بعض الأسئلة الطفولية:

- بكم هذه الساعة الجميلة التى تلبسها فى يدك؟

-

- لماذا لا ترتدى غيرها؟

-

- من أين اشتريتها؟

-

رفعتُ يدي بمقدار بوصة، وأخذتُ أتأمل معصمى وأهز فيه الأستيك المصنوع على هيئة جلد ثعبان، كان معدن الساعة يحك فى إسورة الجاكت "الفاير"، وبرغم ذلك لم يروا إلا الساعة فقط، اختلفت الرؤية بينما المشهد يدور فى مكان واحد وزمان واحد، كانوا يثرثرون بشذرات حوار لا يأتينى مكتملا، مفاده الذى أمكننى

استيعابه، أتى في أعينهم أقف كما خلقني الله، خال من الألوان، والستر، كحبة بُندق نطت من قشرها، وتجاوزتها، من كثرة الحديث عن عُرى بدأتُ أشعرُ بالفعل أتى عريان، تنقبض تجاوبى بين الفخذين وعند الردفين خوفا من كشف عين مُتطفلة لأسرار خِلقتى، وكان وريد رقيق من الحجل يتحكم في كل ما أشعر به من أحاسيس سلبية، فلماذا الخوف من الفضح وكلهم أمامى مفضوحون؟ كان تعريفى الأولى لهم أنهم قوم يشتركون معى في كل شيء عدا الرؤية، فجميعنا متساوون، لنا ذراعان وقدمان وأجهزة هضمية ودورية ورتنان للتنفس، ولنا كذلك رأس تطل منه عينان، ولسان وشفتان، تختلف فقط الكماليات، رأس بشعر أو بدون، لحية مُرسلة أو مقصوصة، ملامح مُكشّرة أو باسمة. إذ إن كل ما يُفرّقنا هو ما لنا دائما فيه يد، عند الحديث عن المستلزمات يبدأ الاختلاف، فهذا اسم عادى وسلبى لا يستدعى للذهن أى تصاوير أو خيال، أمّا ذاك فاسمه مُركّب يسعد صاحبه بالكنية واللقب. كل هؤلاء المتحلقين من حولى يقومون بتلقيح أشجار الكلام، لا لتناسب المواقف بقدر ما تناسب حاجة تحتشد داخل نفوسهم.

كنت أشعر بشيء ما يربطنى بملابسى، هُئى لى بأنى أنا صانعتها، أنا من اشتريتُ القماش وقصصته، حرّدتُ دوران المقعدة وحجّر البتلة، وأنا أيضا من علّق اللافنة المكتوب عليها أزياء الشرق، وأنا كذلك من أكّد على الخطاط بأن يُضيف عنوانا فرعيا بين قوسين (للأناقة أسلوب) ولكن في أى زمن سَطِرتْ هذه الأحداث؟ لا يمكنى الآن

التذكر بشكل كامل، كل ما أعيه أن هذه الحياة تمر أمامي كخبريات خفيفة خُطتْ في دماغى، أو كمنخالة ترسبتْ في قعر ذاكرتى، ولكنها في الوقت ذاته ترمح إلى المجهول، أراها تتعد صاعدة أو هابطة بسرعة، كالتى عشتها خلف ستار من مشمع سميك ومغْبَش.

خفتُ علاقتي بالناس والأشياء من حولي، لم أعد أسمع حشرة النحبة المعتادة، ولا وقع خطواتهم الثقيلة، اختفى وعيى الكامل وحل محله إحساس بتجمد المشهد، رأيت في الجو دخانا، كما لو كنتُ في حرب قتال غاز بالكاد وضعت أوزارها، والأشياء تتكرر كشريط فيلم سينمائي رأيتُه عشرات المرات، انفك الوثاق ولم تعد لي سيطرة على ما يحدث، لم تعد لي أى حيازة في المكان، ولو حتى شبر واحد، أشعر بأن مادتي أصبحت لا بشرية بالمرّة، كالتى صرت شيئا أموج مع الأشياء، أو صورة فوتوغرافية سائلة تتأثر بالزمن، وتحوّل للوحة من زيت أو تمثال من خشب، فقدتُ مع الوقت الإحساس بالساعة وتعاقب الليل والنهار.

كل ذلك لم يكن يقلقنى، وجودى بين الكتل البشرية العارية، تدثرى بملابس ثقيلة لا يرونها جميعا، كانوا يرون فقط ساعتى أم عقارب، مقبرة الآمال العظيمة والحيات المتوالية. كان سبب الطمأنينة هو أنى لا زلت أشعر بمن حولي، أحاول توصيف الأحداث بما أمتلك من بقايا وعى، غبتُ، ولم يعد بإمكانى الحضور مرّة أخرى.

كلما حاولتُ أن أصف شيئا يصعب وصفه، أشعر بتمزيق في صدري، أجتهد في دفن الكلمات قدر استطاعتي، ولكنها تقب وتلبس

أرواحا من الأفعال رغما عني، ولا يصبح بإمكانى التحكّم في ما ستفعله بي، أَرْضُخْ في النهاية للتحديق في حروفها مضطرا، لكنّها على آية حال، أى الكلمات، تَفْشِ الغِلْ وتغلّ النفس بالأمل الوهمي عن الغد والمستقبل وترسم لوحات من تصاوير على الماء، يجري النهر، ويظل التحديق في الكلمات كما هو، وكأنّها ذخيرة حقيقيّة.

أحسست بأن تركيزي ينساب من بين أصابعي، كنتُ أقرب لمريض في غرفة العمليات قبل ثوان من سريان البنج في عروقه، والطبيب يسأله. اسمك. سنك. عنوانك؟ كيف تذهب لبيتك؟. أركب ميكروباص. ميكروباص؟ نعم. ميكروباص هه؟ نعم. متأكد؟ نعم... ميكروباص؟ نـ... ميكروباص؟.. عدم. ميكروباص.. ميكرو...
مـ...

إحساس تدريجي بالانسحاب من الناس والأحداث، هكذا أشعر، فبعد أن حاولتُ إقناعهم خلدت إلى الراحة واشتيتها، فمن يرد إصلاح هؤلاء الناس يتركهم ينشدون أغاني الرعاة والصيادين دون تدخل، لا يُفسد عليهم متعتهم، كانت روائهم تحتشد في أنفي، كثيفة مُكدّسة، تنفخني، أحس بها، وهم، كأني صرت كلّهم، جميعهم في شخص واحد الذي هو أنا، فلا داعي بعد ذلك لنقاشهم، سأتركهم، هم الذين يشعرون بأنّي فقدتُ شيئا ما، ولكن لنقل الحقيقة، حتى هذه اللحظة وأنا لم أشعر بالفقدان الكامل، فقط أشعر بأنّي في مشهد لم يصل معناه بشكل جيد، كترجمة الأفلام التجارية.

* * *

ما أن تخطيت العتبة حتى هلّ عليك صوت خشن لا يمكن أن يكون صوت جدتك:

إحم. إحم.

في البداية، اعتقدت بأنه صاحب البيت جاء لأخذ الأجرة، تبدد توقعك عندما نقر على كتفك من الخلف صاحب البيت، ثم بكفه ربت، وقال:

حمد الله على السلامة يا أستاذ عمر. جدتك وزوجها في انتظارك.

توقعت أن يكون الأمر قد اختلط على الرجل العجوز، فلا بد أنه يكلم شخصا آخر، جدتك وتعرفها جيدا، أما الكلمة الأخيرة فلم تكن مضبوطة المقصد، ربما خائفة مخارج الألفاظ، زوجها؟! زوج من. جدتك!؟

برغم ابتعادك عن البيت لأسبوعين فقط، فكأنك غبت دهرا، كان البيت مدهونا بالأزرق ومرسوم على واجهته طائرة وسفينة وجمل، وعبارات التهاني بالحج المبرور تملأ فراغات الجدران الخارجية، أما المدخل فالبلاط فيه لم يزل مشبعا برائحة الأسمت، وورود صناعية تقودك إلى الغرفة التي كنت تعيش فيها مع أمك وجاتك، ولكنها زاهية بشكل لافت، طرقت الباب بالراحة أولا، لم يفتح أحد، كررت الطرق بهمة أعلى ففتحت لك جدتك، في

البداية، لم تكن جدتك بشكل مؤكد، كان ظهرها المَحْدَوْدَب قد أصبح شبه مستقيم ولون بشرتها تَفْتَح قليلا، وركبت عِدَّة أسنان نفخت شديقا وورّدت وجنتيها، لا، ليست عِدَّة، هي أسنان حقيقية نظيفة ومتساوية. كان وزنها قد زاد قليلا عما تركتها، رحبت بك بمخارج ألفاظ سليمة النطق هادئة النبرة، ثم جلست وقرصت فوق سريرها الحديدي الذي كان مُعدا لاحتضارها منذ أيام. بعد هدوئك من فورة المشوار رأيت المكان بصورة أوضح، فالحصير تبدل سجادا، ومكان سريرها وُضعت ثلاجة كبيرة لها باب بيضاوي، وأمام الشباك تسريحة مُنظمة مرصوص فوقها علبة ماكياج كاملة، وفي أدراج الكومودينو الذي كان مخصصا لشيل العلاج وبرطمان العسل الأسود، رأيت أشياء مرصوصة لم ترها من قبل في بيتكم، مشدّات صدر ملونة وزجاجات برفان بأغطية مربّعة، وقوارير كُحل على شكل تماثيل صغيرة.

أغلقت جدتك الدُرج بعد حملتك فيه طويلا، وأثناء غلقه اهتزّت يدها بغوايش ذهبية تغطّي من ذراعها شبرا، فخبأتها بطرف جلبابها النبيبي اللّمع، كانت التغيّرات صادمة ولا يمكنك تخيل أن جدتك تعيش في هذا البذخ وهي في هذه السن، بمناسبة السن، هي لك بأن الزمان عاد إلى الوراء وحرف جدتك لستين أو ثلاث، وربما خمس أو سبع، تأملتُها مرة أخرى، للحق، حوالى خمسة عشر، إذ لم ترها بهذا التركيز والوعى منذ كنتَ مراهقا وتعدّد المقارنات الدائمة بينها وبين أمك، تشتت تركيزك وارتبك تقديمك وتأخيرك،

تشوّشتَ لوهلة، ثم عدت تتابع ما تغيّر في حياة جدّتك، تبدّلت الهرجلة في ملابسها إلى شكل متقن من ألوان متناغمة المقاسات والهندام، كانت ذاكرتك تحتفظ بآخر مشاهدتها وهي في ثياب المجانين المتبدلة، تضحك وتلمع عينها لمعة تائهة، تشعر بأنّها ستبتلع بعدها الكون، وكانت أكثر حركاتها شيوعاً هي الرقص المتشنّج، و"العجوز لما يتدلّع يكون مثل الباب المخلّع"، هكذا كانت أمك تقول.

جلستُ جدّتك مشدودة الصدر باسمه الملامح دقيقة اللفتة. عنقها كأنه نصب تذكاري منقل بالزخارف، تلمع عقودها مدلاة في دوائر ذهبية صغيرة. من شرودك المتواصل سحبك صوتها:

مساء الفلّ.

وتشعر بأنك في ورطة أكثر من إحساسك بوجوب الرد، كان جريان كلمة قل على لسان جدّتك يستدعي الغرابة، فهي لم تعتد قول مثل هذه المفردات التي يتداولها أصحاب المهن ورواد المقاهي، ولكن من يعلم. ربما ستستوعب عندما تفهم، حاولت ترتيب ذاكرتك لتمكّنها من دس التغيّرات الجديدة في مساحاتها الفارغة، حاولت تذكّر وقائع محدّدة تعود عن طريقها لرشادك وتستطيع هضم ما يحدث من حولك. ساورتك بعض الشكوك في اتصال جدّتك بعوالم أخرى بعيدة، فقد كان زوجها الذي هو جدّك لأُمك تاجراً يبيع الدخان والمعسل، ويُقال أن اسمه كان فايز، وسُميت ماركة المعسل على اسمه، معسل فايز، اكتسب بمرور الزمان شهرة إقليمية، وكان جدك هذا طيباً حد السداجة، ولا تعرف كيف

يُجتمع فيه صفتان متناقضتان، النجاح الكبير في التجارة، والطيبة التي لا تتوفر إلا في البهاليل، على أية حال، كان هذا رأى الحكايات المتناثرة هنا وهناك وتنمو مع القيل والقال والمتشابهات بينهما. لم يكن يغريك في حكايته مسألة التجارة والمعسل بقدر ما كانت تسحرك سيرته في حياته الأخرى، حياة أقرب للحلم، ولكنه حلم كالحقيقة.

كان جدك الذى لم تره يمتلك قدرة غريبة، فيربط بين ما يراه في الأحلام وبين المادة التي تتشكل منها الحياة في الصبح، أو بمعنى آخر، كان يُحوّل ما يراه في أحلامه إلى مادة ملموسة، فلو أنه حلم بأصناف طعام جديدة يصحو من نومه ليصنع مثلها، ولا تقر له عين إلا بتجريب ذلك، وكان يخالفه النجاح بعد عدة محاولات. ولكن المرة التي وقف فيها شعر رأسك، كانت عندما ذكر جدك في الحكايات، جاءك يسعى، عبّر أربعين عاما من الغياب، اقترب على بساط من الخيال، وكان يحلم، رأى في منامه ذبابة تتعلّق بجيـط عنكبوت تمكّن منها، وهى تلفّ بيؤس في محيط واسع من الأسفل ولها مركز واحد في السقف، دارت كتور يلف في ساقية، لا يرى إلا حلقة الدوران وحافة البشر، طنت الحشرة الصغيرة طوال الحلم، صحنى جدك من منامه وروحه مُعلّقة في الهواء كالذبابة التي شاركنه الحلم، وما أن استقر ورأى ملاءة السرير المزخّرة حتى توقّف عن الدوران في الأفلاك، ولكنه فور فوقانه أخرج ورقة علبه معسل من سيّالة جلبابه، كانت مخطوطة ببعض الحسابات، أخرج قلمًا، ورسم المشهد كما رآه قبل أن يتوه في غابات النسيان. بعد ذلك بأيام قليلة صنع أرجوحة في بيته الواسع القديم، أريكتان صغيرتان، الجلسة

فوقهما مُريجة، كان لهما مركز واحد في السقف البعيد وتدوران على رولمان بلى في قطر مُعلّق في قُبّة بعيدة، يجلس جدّك على كرسى وجدّتك بجواره، وكان يطيب له أن يضع يده فوق كتفها قبل الدوران، وعندما تلف الأرجوحة يأخذ مكانه البعيد عنها، وتدور الحلقة الكبيرة فينفّض من دماغه كل الهموم وهو يتابع أحبالها المشدودة، وما أن يتحرّك في السماء القرص المستدير حتى تلف ذاتياً بدون تدخل من أى طاقة حرق أو توصيل كهرباء. تنطوّح أذرعها الكثيرة في الهواء وتصنع غلالة من أسلاك تشبه الأصابع، وعند دوراتها بقوة تتداخل الخيوط بالأذرع وتصنع حالة من الحلم الناعم المتواصل.

باغتك صوت جدتك بسؤال قطع كل موصول في دماغك:

- لماذا جئت إلى هنا الآن. وأين أبوك الذى ذهبت لزيارته قبل أسبوعين؟

(5)

أصبح بإمكانى الآن أن أسمى هذا العام بعام العُرى، على غرار عام الفيل وعام الطوفان وعام الحزن.

ظلال البشر العارية تطبق فوق صدرى، أتقوّس من فرط ثقلها، لحوم وردية تحتاج كُل ما يقابلها، أيام ما كانت الأجساد مستورة كان يمكنى رسم التنبؤات بسهولة، أما فى عصر السفور فلا يمكنى أى تخيل، لم يعد للناس من حولى حديث سوى عن عُرى، ولم تعد فى نفسى أسئلة إلا عن عُريهم، وكأن مسألة القلع واللبس أصبحت هى جوهر الوجود وسبب النوائب، كيف نمت بذور هذا الجنون؟ وفى أى دماغ جهنمى تفرّعت وتشعبت؟ على أية حال، كان اسم سنة العُرى اسما مناسباً وخفيفاً، متى ولدت؟ فى غرة سنة العُرى، متى مات جدك؟ فى خريف سنة العُرى، إلها إذن سنة العُرى.

- يمكن للعالم أن يخلو من الزرع. ولكنه لا يمكن أن يخلو من اللصوص.

قال رجل لا أعرفه قاطعا استرسال أفكارى، ثم غمغم بلغة لم أفهم منها حرفا وانصرف، أى لصوص كان يقصد؟ من يسرق يسرق ما فى

الملابس، وبما آلهم فقدوا ملابسهم في ظرف تاريخي مبهم؛ فمن أين لهم ممارسة لصوصيتهم؟ هل سيسرقون الأجساد نفسها بعد ذلك؟

بدأتُ في استعادة كلمات الرجل بشكل جاد عندما نشبت مُشاجرة بين اثنين من العرايا نشع على أثرها الدم بسرعة من ثقبوب الجسدين، فلا ملابس تكتص السوائل كما كان في السابق، أغرى اللون الأحمر باقي الجموع للفرجة، تحلقوا حول المتصارعين وتركوها يُصفيان الراع على مهل، كان سياج اللحم البشري مغريا للمتقاتلين بأن يستمرا في شجارهما، فقد أصبح لهما جمهور ينتظر نتيجة الصراع بشغف، هلل المريدون وصققوا بصوت مرتفع، دقوا الكفوف بقوة على نغمة واحدة وحجلوا بأقدامهم في نفس المكان، كلما ارتفع صوقم كان ذلك يُحفز على ازدياد وتيرة الصراع، لم تكن معهما أية أسلحة، ولكنهما استخدما الأظافر لحفر الأخاديد في اللحم العارى، سرعان ما تبعها جريان السائل الأحمر وهو يرّ ببطء، ثم يسيل خارج الأخدود، أصبح لكل منهما نصف جسد باللون الوردى والنصف الآخر باللون الأحمر، ازداد التصفيق وضرب الكفوف والحجلة، أصبح هناك سياج غير مرئي يفصل بين الجمهور والنجمين، سياج يعترف ضمناً بأقما من الهالكين، أو على الأقل، سيُجهز أحدهما ويُزهِق روح الآخر لا محالة، وما سيمر من وقت ليس فقط إلا تحصيل حاصل، المشجعون يهللون ليقضى واحد على الآخر أجهز من كانت له الغلبة الجسدية على صاحبه الضعيف نسبياً، فوقع تحت قدميه كمحارب يهرسه جواد عفى، لم يعط الرجل المتفوق جسدياً فرصة للآخر كى يعرض وثيقة سلام، ولم يعطهما الجمهور المتعجل للنتيجة فرصة لضبط النفس، والمركة تسير في اتجاه وضع الأوزار، الرجل المتفوق يزداد تفوقاً، والرجل الضعيف أصبح كخزقة حمراء مبلولة،

كان منظرهما يشبه حلقات النكاح البدائية، عندما تقف أنثى مستضعفة وخلفها فحل يحفره الاستقواء وتأكله الشهوة، ولا بد لكي يفوز بها أن يثبت جدارته، فيَهزَّ عُرْفَه المنتصب في الهواء ويُطَوِّحَه ليزيد من طوله حتى تصبح اللحظة سائحة للإيلاج، ولا يفعلها إلا بعد قليل إعصاري وتصفيق كموج بحر غاضب، وبعد استكانة الأنثى المستضعفة واستعدادها تماما لاستقبال السهم الطائش. وبعد أن يصبح كل شيء على ما يُرام ينفض المولد ويعرف كل واحد من الجمهور طريقه.

لما عدتُ للمشاهد كان قد تطوّر بشكل مُثير، الرجل الضعيف نائم على الأرض، لا دليل على الحياة فيه إلا نَفْسُهُ، شهيق ضعيف وزفير مكتوم يُحرِّك صدره المسجى، والرجل المتفوق جسدياً يضع قدما واحدة فوق صدر النائم المهزوم، لم ينقطع التصفيق والتشجيع برغم تحديد النتيجة، لم يُرضِ شغف الجمهور هذا الحد منقوص الإثارة. فُتح السياج البشرى وحدثت فيه ثغرة على مدد الشوف، ثم اقترب رجل هُئِي لى بأنى رأيتَه من قبل، أعرفه، مألوفة ملامحه، محفورة صورتَه، إنه هو، نعم هو بذات نفسه، سيف باشا.

اقترب بمهابته المحفورة في ذاكرتي، كان على مشارف حلقة الصراع، ولجها وأصبح فيها ثالثا بين المتحارين، أخرج من طيات ملبسه الكثيرة مقص الأشجار، أمسكه بيديه وطقق به أكثر من مرة، حفز ذلك الجماهير التي كانت في حاجة لمن يلهب حماسها بأى ثمن، هاجوا وعلت أصواتهم بين الصفير والصياح والعياء. أعطى الباشا مقصَه للمنتصر وخرج، انضمَ للجمهور بنفس الكبرياء

والشمم، أمسك الرجل المتفوق جسديًا بالمقص ورفع في الهواء لأعلى قدر ممكن في حركة تحية للجمهور، ثم أمال الرجل الضعيف على جنبه وصوب المقص الكبير ناحية عنقه، وبضغطة واحدة عفية رأت الجماهير ما أشبع غرورها وأعاد السكينة إلى نفوسها، تدرج الرأس لمسافة مترين بعيدا عن جسد صاحبه، لم يلحق به خرطوم الدم، الرأس الذي كان يكبس الجسد طار، فتبددت أسباب الضغط. وهنا صمت الجمهور وخيمت عليهم حالة من السكون والتأمل، أما الصوت الوحيد فكان لسيف باشا، صفق بكفيه الكبيرين، وحفز صدى صوته الجمهور، وسُمِعَت كلماته تشق السكون:

- عفارم. عفارم.

* * *

قدّمت لك جدّتك قرصا من المشبك يتر منه العسل، تذوّقته ثم التهمتّه، كان طعمه لذيذا، كأنه معمول بالسمن البلدى، من فرط حلاوته لم تعطها منه قطعة، أشارت بيدها والغوايش "تخروش فيها على رصة طويلة، حوالى عشرة أقراص من نفس النوع، كانت الرصة لها خطوط طيفية الألوان مبهجة، ومغلّفة بـ"سليوفان" مفضض فيه فراغات شفافة، ليس من المستغرب وجود نقاش بينك وبين جدّتك بخصوص التهام أقراص المشبك، ولكن المستغرب حقا هو وجود المشبك هنا بهذه الكمية والحلاوة.

كنت تشعر بأنك في عرض سينمائي وليس بإرادتك الخروج منه، على الأقل في القريب العاجل، ومع ذلك فقد كنت مستمتعا

إلى حد كبير، نسيت عُريك واختفاء ملابسك للأبد، وتحولت رسمياً لمكانتك السابقة في العائلة، حفيد يجلس أمام جدته، مع استمرارك في التأمل صرت تدقق في التفاصيل من حولك، الغرفة تشعر في تأسيسها بالذوق السليم، كرسيان بمقعد هزاز، والأرض يغطيها سجّاد أحمر، وسرير جدّتك الحديد مُرتّب بذوق، من فوقه ناموسية زرقاء جميلة غير مخدوشة النسيج. هُئِي لك بأن الغرفة زادت مساحتها عن ذى قبل، يذكرك أحساسك هذا بمعلومة تاريخية عن عائلة جدّتك تعود إلى حوالى نصف قرن، كان بيتها كبيراً منذ سنوات بعيدة، أيام ما كان جدّك فايز يتاجر في الدخان وتُملأ حاويات السفن من مصنع المعسل الذى يملكه، ولكن بعد موته بمرض مفاجئ ظهر منافسون كثير في صناعة الدخان.

تفتت تجارته، وتحولت جدّتك لذلك النوع الذى يُسمونه ميسورا، اضطرت بعد ذلك لبيع أكثر من نصف بيتها، اكتفت بغرفتين وصالة بالمنافع، هم كل ما نالت جدّتك مما ترك جدّك فايز، وكان من أسباب انطفاء البريق في عينيها اضطرابها لتفكيك الأرجوحة التى صنعها لها جدّك على غرار جِلْمه الذى رأى فيه ذبابة مُعلّقة في خيوط عنكبوت. فلم تعد جدّتك ترى الأذرع الطويلة المتطوّحة في الهواء، ولم تعد أيضاً تُمتّع نظرها باللف في حلزونات الهواء الطلق، فتغيّرت نفسها وضاق خلقها.

ولكنك الآن تراها في ثوبها القديم، أصبحت كما كانت أمك تصفها في الحكايات.

انتظرت أن تسألك عن عدم ارتدائك لأى ملابس، أن تتعجب من عُريك، فلم تسأل، ولم تتعجب. هل كل شيء بالعود يكون طبيعياً؟ فى تلك الأثناء قامت جدتك ولاحظت بعد انتصاب عودها بأن جلبابها النبى ما هو إلا قميص نوم يُظهر من لحمها أكثر مما يُخفى، مقروط حتى ركبتيها ومن فوق يبين كنفها، وتقوية كبيرة من عنقها. عادت جدتك بعد قليل وهى تحمل كوبا كبيرا من الشاى الساخن، جدتك، جدتك أنت تصنع لك، لك أنت، كوبا ساخنا من الشاى؟! وضعته أمامك برقة، حتى أنها لم ترعجك عند وضعه كما كانت تلقى بالأشياء من قبل، قبل؟ أى قبل؟ جدتك تصغر وتجاعيدها تنفرد، حتى عنقها الذى كان به جزء حاد مكان تفاحة آدم تدور، كان ينتصب من تحت ذقنها وحتى منتصف صدرها سيف رقيق من اللحم كورقة جلاش ليس لها أبعاد، وفكها يُحرك الورقة ويتحكم فى هزائها المستمرة، كما لو كانت تزدرد شيئا وهميا، أما الآن، ففكها متماسك وبصتها مع بشائر الابتسامة تُذكرك بوقفة الفلاحة الموناليزا، لقد اشترت منذ مدة بعيدة بروازا لفلاحة تحمل فوق رأسها بلاصا، ربما كانت جدتك أكبر منها سنا ولكنها تشبهها، بالأدق كأنها أختها الكبيرة.

اقتحم جلستكما صوت مهيب وله من الفخامة ما يُجير الآذان على الإنصات الجيد:

- إحم.. إحم.

لم تلتفت خلفك، ولكنك كنت ترى هيئة الآتى من ورائك بخطوات بطيئة من خلال نظرات جدتك المترتبة، زاد تبسمها وهى

تقوم من مكانها وتمد له ذراعيها على شكل حُضن، وكنت بينهما
تصارع في مكانك محاولاً الفهم، نظرتُ جدّتك في عينك نظرة فيها
قدر كبير من الحنية لم تتعوده منها، ثم قالت بصوت متماسك:

طول عمره مؤدب. يقول إحم كثيراً قبل الدخول لأى
مجلس. اعذره يا ولدى. فقد جاء من مسافات بعيدة لا يمكن
قياسها.

على نفس وضعك المتوتر، وبنفس وجهتك، كانت عينك في
عين جدّتك، لا تقوى على الالتفات للخلف، فسألتها:

من هو؟

فقلت وهى تترك مجالك وتذهب لمن مدّت له ذراعيها منذ
برهة:

جدّك فايز.

(6)

أمسى العالم بالنسبة لى مسعورا، فبعد أن رأيتُ رأس الرجل تترك
مجاله كـرأس ديك وتندحرج بعيدا، لم يعد شيء فى نظرى مُستبعدا،
أصبحتُ أمتيقى الوحيدة أن أتدثر بمحار ويلقوا بى فى قاع محيط، لم
أعد أتمتّى أن يكون صوتى هو هدير الكون وزمجرته، كنت كمن على
يقين تام بفناء العالم وينتظر فقط يوم التويج المشنوم.

كان سبب رغبى العارمة فى الانزواء هو إحساس بالأشياء يستر
سواتى، ولا حتى ورقة جوافة، وكان من يُشبهونى بذلك التشبيه
يُسقطون ما فى أنفسهم على مرأتى، فما يشعرون به لا يرونه، وما
يخطر أمام أعينهم لا يصدقونه، ليس ذلك فحسب، ولكنى أنا، أنا
صاحب أزياء الشرق، وأنا صانع ملابسى هذه، نعم، بنطلونى
الجبردين الأسود، بكسرتين وجيين خلفى، صنعته، نعم، أنا الذى
صنعته وليس أى شخص آخر، وقميصى الكشمير اللبني ياقته مُنشأة
بفضل حشو الفنهاوزن الثقيل، أنا عُمَر الترزى، الأسطى عمر كما
ينادى الزبائن، أخذت أصبح فى هؤلاء السائرين عرايا:

"أنا صاحب أزياء الشرق، أنا مؤسس أزياء الشرق".

لم يسمعى أحد، لا مُجيب على صياحى، سأفصل لهم ملابس
تسترهم، ربما استحسنوها وجاءوا بزبائن جدد، كيف أكون صانع
ملابس والناس تتفق على أئى عريان؟ ربما لأئى صانع للملابس
وصفوى بالعري. كنت ترزيا منذ مدّة لا تسعفى بتحديد لها ساعى أم
عقارب، اخترع قصّات جديدة للزبائن، وكل جديد كان يأتى عن
طريقين، إما ملل من القديم، وإما خطأ فى التقليد، وكانت الثانية من
نصبى، فأى تحريف يعتبر إبداعا، كنت أحاول عمل كسرتين فى
بنطلون أحد الزبائن، فجاءتا معكوستين، وعندما حان وقت الاستلام
أسعفى الخيال باختراع مُسمّى لهذه الغلطة الشنيعة، كُلّوثة، قلت له:
- لقد عملتُ لك كلوثة.

فاستحسنها الزبون، وجاء بأقاربه وأصدقائه لأقصّ لهم بناطيل
بكلونات، كانت هذه الغلطة سببا فى شهرة الخل، وأصبح اسم أزياء
الشرق كالطل، فرفعتُ سعر تفصيل البنطلون للضعف.

لماذا تركونى أعبر خارج البوّابة؟ كنت أسأل نفس السؤال بصيغ
مختلفة: لماذا عبرتُ البوّابة. ولماذا توجد أصلا بوّابة تفصل بين الناس
وتُصنّفهم ألوانا وأشكالا ونوايا؟ كانوا يسمعون أنفسهم فقط، أمّا
صوتى فلم يكن يتجاوز حلقى ولم يعبر محيط جسدى، هل ساردُ
عليهم بكلمة. وهل الكلمة ستقدنى مما أنا فيه الآن، كلمة، لا مانع
إذن، فسيّدنا نوح أنقذ الحياة على كوكب الأرض عندما نُطقَ الاسم
المئة من أسماء الله الحسنى، فعبرتُ سفينة الطوفان بعد عبور الكلمة
لخنجرته.

مرّ على رجل عجوز، وبدون كلام أمسك بخناقى وقال:

- يا مُفترى. يا عدو ربنا. أتقف عريانا، يا أخى، استح، يا مفترى.

عندما قبض بأصابعه على ياقة قميصى حدث الله فى سرّى، ثم صحت فيه وفى من حوله:

- ملابسى. فى يدك ملابسى. أنا لستُ عُريانا. ياقنى بين أصابعك.

تركنى الرجل وهو يساوى كرمشات قميصى ويُعيد وضع ياقنى لما كانت عليه. تُهتُ وأصبحتُ لا أدرى على أى أرض أقف، نبرتى الداخلىّة حائرة بين الرصانة والتوسّل، إلى أين أذهب، أنا، عمر، صانع الملابس وصاحب أزياء الشرق، فى الزمن المنصرم، وقبل أن يهلّ عام الغرى، كان مجرّد رؤية مثل هؤلاء العرايا تُعتبر لقيّة لأى ترزى، فرصة لانتعاش بنك القصر ودوران مكن التقفيل السنجر، عمل العراوى وتركيب الزراير والكُش، ثنى الرجل بالسراجة أو البيجة الخارجيّة، تركيب الكمر ولوكسات الحزام، وعمل جيب ساعة لكبار السن والموظفين، لو أن كُلا منهم فصلّ طقما واحدا فقط كنت سأجدد المحل من الألف إلى الياء، أغير الإضاءة وأركّب بابا من زجاج السيكروريت، لأكتب عليه بالقطن الأبيض رقم السّنة الجديدة وبجوارها كل عام وعملائنا الكرام بخير، فى السنة العاديّة وليست سنة الغرى.

عندما تذكرت كل هذه التفاصيل وقفت أمام الجموع السائرة أمامي، وقلت بصوت نسي فجأة بأنه محبوس:

- أنا عمر التريزي. صاحب أزياء الشرق. أنا عمر سعيد إبراهيم.

* * *

الآن أصبحت أمام جدك وجهها لوجه، جدك فايز، كان يقف أسفل صورته، الفرق بينهما أن الأصل ملون، ويتحرك، قدمته جدتك على نحو فيه من التفخيم ما يؤذى مشاعرك، قامت من مكانها ووقفت بينكما، أخذت تُشير بيدها إليه وهي تحدثك. كانت جدتك تبدو في ثيابها النسيج كفتيات الليل، تنقصع أمام جدك دون أى اعتبار لوجودك، يبدو أنهما تفاجأ بوجود حفيد شاب بينهما، انفرطت سيرة جدتك كما تحتفظ بها ذاكرتك، وكان يبدو من معاملتها الرقيقة له بأنه جاء من سفر طويل، ربما كان يُصرف بضاعة في كازاخستان أو في اسطنبول، فالمعسل والدخان المحلى لا يتم توريدهم إلا لدول شرقية. وكان جدك يبحث عن العمالة الرخيصة ليؤقر في المصاريف، فكان يأتي ببعض السمكرية وفاتلى الأحبال، ويجعل لهم أعمالا في صناعة الدخان وتجارته، وكذلك استدعى بعض صانعى القلوع الذين كسدت مهنتهم وجعل لهم عمالا في تشوين المخازن وتعتيق المراكب بكراتين المعسل، وتغيرت مهن بعض الحمالين وصانعى براميل المخللات ليستقروا في مصنع جدك، وأصبحت مهنتهم الجديدة هي صناعة المعسل. وبعد أن كانت الصادرات في مصانع الدخان المصرية لا تخرج عن دول مثل روسيا وسوريا واليونان، توسع جدك فايز في توريد الدخان لدول

كإنجلترا والنمسا وسردينيا والسويد، وكان لذلك فائدة عظيمة، فقد جعلته يتحوّل بسرعة من أصحاب الصناعات الصغيرة إلى مصاف الأعيان وأصحاب الطين.

شذرات من بقايا حكايات تعبك بلمسها الناعم، تجتهد ذاكرتك في الاحتفاظ بها قدر الإمكان. دائما كنت ترى غير الحكايات إسرافا في الأوصاف ومبالغة في الأحداث، خاصة عندما تتعلّق المسألة بمدح الصفات الحسنة كالشجاعة أو الجمال، ولكن هذا الإحساس تبدّد عندما تأملت جدّك فايز، فرأسه يلمع بجمرة ريفية تربّت على العز، وكبرشه لا يوحى بالترهل بقدر ما يوحى بالشيع، عندما كان جدك غائبا كنت تتعامل فقط مع الاسم، وتركّب عليه أى جسم وصفات تشاء، كان اسمه يعنى نوعا متقدّما من النجاح، فايز، قبل رؤيته كنت تتخيّله كتلة واحدة، ولكن التفاصيل شغلتك عندما رأيته واستوى كائنا من لحم ودم.

فتح جدّك الثلاثرة وأخرج منها زجاجة مياه، رفعها على فيه فترلت فارغة، وضعها على الكومودينو وتكرع بصوت لا قرف فيه، ولكنّه يوحى بطمأنينة الموجودين بأنهم فى كنف رجل قوى، ثم لبس شبشب الجلد أبو حزام وأبزيم، وعند عتبة الباب قتل صرصارا ثم خرج. عاد بعد قليل وهو يحمل حديدا كثيرا، عمدان ومواسير وزوايا مربّعة، كلّها مدهونة بلون وردى، كأذرع كائنات خرافية، بدأ فى تركيبها بمفصلات ومسامير، ثم شبك الحديد فى بعضه بتمكّن

كالحدادين، رفع صنعه في الهواء فصارت قبة، يزيد قطرها قليلا على سقف غرفة، معشقة في بعضها ومسوكة بصرة حديدية كبيرة مُعلّقة في الهواء، من الأسياخ المتدلّية سيخان عليهما كرسيان من قطيفة حمراء، مُزينان بشرائط ذهبية فيها تخاريم، دفعها جدك بأقل مجهود، فقد ركّب لها رولان بلى وضبطه بميزان خيط، وبدأت الأرجوحة في الحركة، ثم جلس جدك على كرسى وجدتك على الكرسى الآخر، وبدأت الطاحونة الحديدية في الدوران، في البداية لفت الصينية بطيئة لا تبدو أن قوى كبيرة تُحركها، ولكن سرعان ما تتابعت اللفات وتوالت صرخات جدتك، خرجت منها أصوات بعضها يسكن في منطقة العيب، وجدك أيضا، هلل كمراحم يقضى يوما في الملامى، تفتت صرامته المزعومة لما هاجت الأرجوحة الحديدية وانفلت عقالها، لفت بسرعة للدرجة لم تر فيها ملامح الركاب، ولم تستطع الفصل بين الكرسيين القطيفة، ولا عدّ الأسياخ الحاملة للمقعدين.

نزل جدك من على بساط الريح، وتبعته جدتك برشاقة، ثم أخذت ترمق الأذرع الوردية المترنحة في الهواء وتلف من تلقاء نفسها بقوى ذاتية مجهولة، دس جدك فايز كفه الكبير في سيالة جلبابه وطلب منك أن تقضى له من الخارج شيئا.

في بادئ الأمر التبس عليك طريق الخروج من البيت، البيت الذى قضيت فيه كل عمرك تقريبا، لم تعد تعرف كيف السبيل

للخروج منه، جدّك وجدّتك بالداخل، يَغْنِيان بانبساط لا مثيل له،
يتمايلان بنشوة، ثم يُذكّرها بشحن الحاويات بدخان معسّل، لم تدم
من الحياة أساطيل السفن ولا الثروة، طارت كدخان كراسي
المعسّل، وتُحاول جدّتك ان تُهَوِّن عليه، فتُذكّره بحلاوتها وحَفَيان
قدميه خلفها، تُبالغ في التشبيه وتقول بأن شق جوز الهند بياضه كان
ينكسف من بياض كعبيها، وشعرها النازل على ظهرها حتّى
ركبتها، كانت الرواية تبدو حقيقة، فقد أتقنت جدّتك دور الفاتنة
وأجادت تمثيله، حتّى أنّها بدت مُغرية لك أنت، وبسبب حبكة
الرواية سقط عنصر الزمن وصيرت مُعلّقا بين السماء والأرض.

لماذا أنت بالخارج الآن؟ آه، تتذكّر، رفع جدّك جلبابه أمامك،
دسّ يده في سيّالته وأخرج جنيها غريب الشكل والألوان، عجيب
الحجم والرسومات، مدّه تجاهك وقال:

خذ. اشترِ لك حاجة حلوة.

هل وأنت طويل هكذا يُقال لك مثل هذا الكلام؟ هل لم يزل
يراك طفلا؟ باش الجنيه في كفّك، لو لم تكن صغيرا فلماذا تبحث
عينك عن أقرب بقال؟ هل بالفعل راحت نفسك لحاجة حلوة بعد
تعودك على طعم المشبّك؟ وهل يشتري الجنيه الواحد حاجة تملأ
العين؟ كان جدّك يعطيك الجنيه بمية من أعطى مئة، أو ألفا.

وتشعر بأنك على وشك النوم، تاه عن عينك طريق الدخول
للبيت، كما تاه من قبل طريق الخروج منه، لا شك بأنك تخلّصت

من سُحنة إرهاق طويلة، كانت المشاهد تتغير في عينك كل برهة،
 قهيم في ملكوت وتحلم بأشياء لم تكن في الحسبان، للدقائق معدودة
 تشعر بإرهاق من صحى لتوّه من النوم، تمشى في الشارع وأنت
 تتمطّع، تلفحك نسمة باردة تحدث في بدنك قشعريرة محدودة، تشم
 رائحة شمعة تحترق وزيت عفن، وعندما تجاوزها اختفت، وحلت
 محلها رائحة قرفة فاقعة، رائحة طيارة لم تثبت في أنفك طويلا،
 مشيت مفتوح العينين وأنت ماض في طريق البيت، تبدّل الجنيه في
 يدك ببعض مصاصات وأكياس مفرمشات وقرطاس لب، متى
 اشتريت هذه الأشياء؟ تقصد باب البيت وبرغم ذلك تتجاوز
 مرتين، تعود إليه ثم لا يمكنك الدخول، وقفت ساهما كما لو كنت
 تبحث عن عنوان في كوكب غير مأهول، شعرت بأنك في مرحلة
 هُدنة ماء، نفسك مطمئنة وراضية، والأجواء من حولك ساكنة
 وناعمة، لا ضجيج ولا أصوات مُنفرة. ولكنك لاحظت شيئا،
 مُحجيت جميع الرسومات من على الجدران، الجمل والسفينة والقطار،
 وأيضا عبارات الحج المبرور والذنب المغفور التي كانت تملأ كل
 الفراغات في واجهة البيت، عاد الحائط كالحا كما كان، حيرهُ
 مبقور ومحارته متأكلة، تأملت المدخل، كان قد تخلّى عن بلاطاته،
 تبدّلت رائحة الأسمنت بزناخة، والفواصل الجديدة الخضراء بين
 حروز الجدران تقرطمت وبانت سوءات الأرض، عتبة منهوشة
 ودَرَج غير مكتمل، شبايك واقع طبقة دهانها وورق شيشها ومعلّقة
 بمفصّلة واحدة.

توقفت أمام البيت، حاولت تذكر أول الخيط، وقبل أن يستقر وعيك على أحداث تجعل المشاهد مترابطة، كان صاحب البيت الذي رأيته منذ قليل وهو داخل المسجد يخرج منه، اقترب منك ونقر ظهرك ثم على كتفك ربت، وقال:

- هل كنت مسافرا؟

لا.

- أين كنت إذن؟

لماذا تسأل؟

لأنك لم تحضر جنازة جدتك منذ أسبوعين.

(7)

لماذا لا أدون كل ما مرّ علىّ من مشاهد؟ فربما هرب الوصف وأصبح من الصعب الإمساك بتفاصيله مرّة أخرى، كنتُ أكتب بعض المشاهدات وبعد أن أفرغ من تسجيلها تعجبتُ، وكأنّ كاتبها هو شخص آخر غيري، لم يكن ذلك بغرض الانتهاء من مخطوط روائي، فأنا سعيد، سعيد بشكل ما لكونها رواية غير مكتملة، فقد كانت أمتى تقول دائما "إن كملتُ خاف منها"

كانت الناس تسير كقناديل قارب الزيت فيها على النفاد، أو كآلات فرغت خزانات الوقود فيها، تخمد ملامحهم وينسحب منها البريق، وكلما مرّ أحدهم ورمى السلام كنتُ أشعر بأنّي لا أقوى على النهوض، تلفني الأغلال من بين يدي ومن خلفي، وأسأل نفسي: لماذا انحرف مسار حياتي؟ عشتُ هذه الأحداث وأنا لستُ جزءا منها، كما الحال في الأحلام، تماما أنا، يُهيى لي بأنّ البطل الذي خطط لكل شيء، ولكن كيف يكون البطل هو نفسه المتابع لسير الأحداث؟ في الحلم وحده يمكن ذلك، هل أكون غائبا عن الوعي؟ هذا يمكن في حالة واحدة فقط، لو بتجوى وغمث شهرا، ولكنّي مستيقظ، هه، مستيقظ، أنا عمر التريزي، أنا عمر سعيد إبراهيم، صاحب أزياء

الشرق، كُل من يشعر بأنه في مكان ليس مكانه يكون ثثاراً، يستهلك كلاماً كثيراً ومُعاداة عن نفسه، اسمه، سِنّة، مهنته، عنوانه ومكانته، ولكن لماذا لا يرد عليّ أحد؟ لو كنت في كامل وعي واستيقاظي فلماذا لا يعيرني أحد اهتماماً ولو حتّى بلفتة؟

لماذا لا يوجد حولي أطفال؟ معنى البراءة الحقيقي، لو رأيت طفلاً سأصدق أنّي لستُ في حلم، هل اخترقتُ الصلابة المادية حتّى أوشكتُ على الاحتراق؟ وأصبحُ روحاً تستعد لتمثيل دور جسدي ليس لها. مؤكّد بأنّي في مُعطف طارئٍ وسأخرج منه قريباً، أحسّ بأن شعيراتي المخيّة تطلق وتحوّل لألياف، تجبرني على التحديق في الأشياء مليّاً، هل هو الجنون قد أصبحَ على المشارف؟ هل كل ما أصبح مطلوباً مني هو مقاومته قدر استطاعتي؟ يبدو بأن هذا التخمين الأخير صحيح بنسبة كبيرة، فقد أصبحت أواجه صعوبة وتلعثماً عند البحث عن كلمات تناسب إحساسي، أشعر بأن صوت الكلمات في مخّي يتمزّق كما تقرط شرشرة مستونة حزمة برسيم، وأنا في الخضم تائه، أحاول عبور غابة كثيفة، أتأمل موقعي، فالرؤية طوال الوقت غائمة وتدعمها ستارة محفوفة بالألوان، وأنا من فوق الأطياف أعبر الناس كفقاعة، رغبة صغيرة تأمل بأن تجتاز أمواج المحيط، وأشعر بأن متابعي للناس والأشياء نوع من الحلقة العمياء.

كنت أحاول جاهداً أن أتذكّر ما يمكن أن يغيّبه النسيان، أسن ذاكرتي لكي لا أنسى التفاصيل، ففي نهاية المطاف تُصنّر الحياة في منديل الذكريات، ولا يمكن إعادة الأحداث ذاتها أبداً، ترقد في

ملكوت الغياب للأبد، كنت أتلعنم وأنا أوجز ما رأيته في كلمات أو جُمَل، كلَّما تفوَّهت بكلمة خائفى معناها واستعصى على الفهم.

أشعر بالمزيد من الانبهار المخلوط بالتوجَّس عندما يمر أمامى شخص عار، رجلا كان أو امرأة، بدأ النوع يتماهى ويفقد حِدَّة الفصل، يرمى السائر السلام بمنتهى العاديَّة، يقوم بملاطفتى بتغيير صيغة السلام أحيانا، حركات تُبين حُسن النوايا، ولكنها أيضا بها شفقة على حالى العارى كما يرونى، كنت بالنسبة لهم غريب الأطوار، وكانوا بالنسبة لى مصابين بلوثة عقلية، وأسأل نفسى: لماذا لا نتلاقى على أرض واحدة؟ اقترُب منى شاب لا أعرفه وقال:

- لماذا تقف عاريا يا أخى هكذا؟

خلعت الجاكيت "الفاير" وأمسكت بقميصى من عند الأساور ومددت يدي له وأنا أصيح:

- هذا قميصى. أنا مكسو بملابس وحية أُمى. حتى شوف. شوف.

فرد علىَّ وكانَ صوته يأتينى من الآخرة:

- لا ذراعك عارية. حتى شوف أنت. شوف.

برغم تأكّدى من صحَّة إحساسى، فإننى كنت أثناء الحوار أشكُ فى نفسى، كل هؤلاء الكومبارس يخلون دورا معلوما ويتفون نتيجة ما، هل يريدون أن يعيدون مرة أخرى خلف البوابة؟ ولماذا سيريجهم ذلك؟ ربما سيريجنى أنا، على الأقل كان الرلاء والأطباء يلبسون ما

يزيد على الحاجة، كانت رؤية سلبية بالفعل، ولكنها الآن تحولت لرؤية إيجابية أكثر مما يجب، ستُحرق شعيرات الإبصار بسبب قسوة التغيير وكثافته، كنت هناك خلف البوابة أضمن لقمتي، أما الآن فلا أحصل إلا على اشتمزاز المارين وتعاطف المحسنين، كيف وصلت لهذه الحال؟ هل ضُفِرَتْ قصتي مع قصص من حولي من الناس وأصبح من الصعب فك اشتباكها؟ هل كان يجب على التشبث بمنطقي ولغتي مهما كانت التضحيات؟ لقد سمعت أسماء يُخال لي بأنها ليست مصرية، فهل يوجد مصري اسمه سيف باشا؟ وهل يوجد أحد الآن يقول كلمة مثل عفارم؟ أيكون الرجل تركياً؟ تبدو الكلمة قديمة وتراثية، هل عُدت بالزمن أو عاد بي؟ ذاكرتي لا يمكنها استعادة أزمنة تطير فيها رؤوس العباد وييقون برغم ذلك على قيد الحياة! هل يحتاج الفصل في هذه المسائل المربكة لأطلس جغرافي أو تاريخي أو فهرس للأماكن؟ يهمني لي بأن هذا الموضوع يحتاج حفراً في الأعماق، فيختنق عالم، ويولد عالم آخر مختلف، مختلف تماماً.

شعرتُ بفتور نسبي ورغبة كبيرة في الانزواء، انطويت وقرفت، أحسستُ ببرد شديد يفتك بضلوعي، برغم الشمس الساطعة والضوء المنتشر.

* * *

كانت رحلة غريبة كشفها صاحب البيت، لم تتبدد خلالها شكوكك، كنتَ تشعر بأنك ستقابل جدّتك عمّا قريب في مكان ما، ستقابلها وتحمل جنوبها، كان رأسك مُهدّلاً كشجرة مثقلة

بالثمار، وأفكارك مُرتبكة، تغوص في الأرض وتشعر بما تبتلعك، كأنك تقف فوق رمال ناعمة. دخلت البيت مُندفعا كالمجنون، نكشت الدولاب وجبت عاليه واطيه، وقعت ملابس جدتك كلها على الأرض، هبشت بأظافرك كل المحتويات لتبحث عن شيء واحد، الكفن، أين كفن جدتك الذى اشترته لها منذ أسبوعين؟ فصاحب البيت لا يهمه إلا دفع الإيجار أول كل شهر، وكثيرا ما كان يهذى، ويكذب أحيانا، لا يثبت أبدا على رأى، فلا يجب أن تصدّقه، ستبحث بنفسك عن جدتك.

تخلعت ضُلف الدولاب المخلخل، ووقعت كل المحتويات، زجاجة عطر قديم على شكل تمثال، وجزء من قرص مشبك ملزوق فى جلباب نبتى هالك النسيج، ومكحلة سوداء مخرومة، لم تجد الكفن الذى استقر منذ مدة داخل تجويف مصليّة لا يستخدمها أحد، المصليّة موجودة ولكنها فارغة. لو كان صاحب البيت يُخرّف فأين جدك فايز، كان يقف هنا، لا، بل هنا، أين أرجوحة الهواء المُعلّقة بصرة من الحديد؟ وأين الكرسيّان المكسوّان بالقטיפيّة؟ بل أين جدتك نفسها؟ هل ماتت حقّا؟ جعلتك هذه الملاحظة تستغرق فى التأمل، هذّك التعب والإرهاق من جديد، عاد البيت فقيرا بلا أم ولا جدّة، خرجت إلى الشارع، قابلت صاحب البيت للمرّة الثالثة، فوقّف أمامك واثقا وقال:

ماتت، صدقنى ماتت، لما جاءها كثيرا فى مناماتها شخص توفى منذ زمن. كانت تهذى بكلمات لم يستطع أحد فهمها.

مرجيحة حديد لها أذرع تنطوّح. مصانع دخّان كبيرة. مسكينة. الله يرحمها.

تركته وجلست مقرفصا في ركن على حرف المصطبة النائمة
أمام البيت، لم يكن همّك كما في السابق منحصر في متابعة
السائرين في الشارع، ولا حتّى في الاهتمام بمن يلبس ومن يقلع.
ولكن اهتمامك انحصر في فك شفرات كُل ما حدث، ومحاولة
تفسيره من جديد.

(8)

في هذه اللحظة، فيها بالذات، تساورني الرغبة في العودة من جديد خلف الأسوار، هل وصلتُ إلى هذا الحد؟ أعود إلى البوابة برجلي؟ كان خروجي منها بمثابة مُعجزة، فكيف أرجع مرة أخرى للسجانين؟ حياة أى إنسان مليئة بالصراع من أجل لا شيء. كرهتُ الصراعات وأريد العودة لأعيش بطريقة طبيعية تحت حكم الحراس من جديد.

رجعت إلى المحطة مرة أخرى، أنتظر الميكروباس الذى لا يتغير لونه، ولا سائقه، أستقله كبساط ريح بأربع إطارات، هدنى الانتظار واحتجت طوال الوقفة لإنفاق طاقة عصبية كبيرة، تأخذنى الأفكار وتدور بى حول سؤال واحد: ماذا ارتكبتُ من أخطاء حتى يُفعل بى كل هذا؟ لقد خرجتُ من البيت الذى تركتُ فيه أُمى وجذتني على أمل حل مشكلة أبى، فتحوّلت حياتي نفسها لمشكلة لا حل لها. حاولتُ دفس لوى الرمادى الذى هو أصل الحياة عن أعينهم، خرجتُ لأجد جميع الناس لا يعرفون إلا لونين أيضاً، ولكن بعد أن تركتُ المستشفى فشلتُ فى تحديد أرض أفق عليها، استبدت بى يأس مُطلق، وأردت الابتعاد عن كل ما يربطنى بسيرة من رأيتهم فى رحلتى كُلّها، أصبحت أرى الناس ككتل صلبة لا تميّز عن باقى الجمادات

بشيء، لا أحتاج بينهم إلا لصدقة كبيرة تُخفيني عن الأنظار، فلا ما أراه يقتنعون به ولا ما يروونه يروق لي، كأننا صرنا نوعين من الناس لا صلة بينهما، لا يربطهما ما يربط سربا من طيور أو قطيعا من غنم، دالما يسود خيالي ضوء باهت بلا ظلال، حاولتُ معرفة ما يشغل خيالاتهم وفشلتُ، كانوا يتدققون أمامي ثم يعبروني، أشعر بهم كأثير حلم يمر من خلال ثقب صغير، ينتشرون في كل الأماكن ويحتلونها، يتادون على بعضهم البعض بلغة هم فقط يفهمونها، يخترقون حُجُبي إِمّا ببطء وبلادة وإِمّا بإيقاع لاهت سريع، وفي الحالتين لا يمكنني الالتفات إليهم، في البطء يمرّون كالرسومين فوق صفحة ماء ألقى فيها بحجر، وفي السرعة يمرقون كأشياء لم تمر، وفي الحالتين أشعر بأنّي أقفُ وحيدا، وخائفا.

في لحظة كأنها الطيف جاء الميكروباص ليحملني إلى البوابة مرّة أخرى، قبل ركوبى لعبتُ في دماغى فكرة، لماذا لا أستفز السائق هذه المرّة؟ سأسأله، ما رأيك في الجاكيت "الفاير" الذى ألبسه؟ لم أكذب خيرا، جسّلتُ بجواره، ولما سألتُه أجاب: ولكن القميص يعجبني أكثر. وهنا تأكّدتُ من أنّي أنا، أنا نفسى عمر سعيد إبراهيم، عمر التزى وصاحب محل أزياء الشرق، ولكن السائق بدا عجوزا وأكبر بكثير من المرّات السابقة، كان له طقم أسنان يقع من فكّه العلوى عندما يضحك، ورأيتُ شعره خفيفا وفزعا كقش الأرز، ولكنه هو، هو السائق الذى يتجول في بين الأزمنة المتعاقبة، لم يكن أحد معي من الركّاب، حتّى في الميكروباص صيرتُ وحيدا، تنفّس الرجل بعق وقال:

- لماذا استعود إليهم؟

ولم أرد عليه. كانت الرغبة في الخروج من هنا تنهشني، بأى طريقة، بأى ثمن، وأصبحت أضغط على نفسى لكى لا تطلب الخروج للعراء، كنتُ أفقر للحرية، والآن أصبحتُ أخشاه، بينهم كنتُ أشعر بوجودى ووعى، انقباضات وتعبيرات الآخرين تساعد الدم في عروقى على السريان، لم تسعفى ذاكرتى اللفظية على التحكم الكامل فى نفسى، تمر بى تصوّرات كثيرة بلا عدد، تتزاحم، فأضعها بلا وعى كامل فى الجزء الافتراضى المسئول عن استرجاع الحقائق، ثم بعد ذلك، لم يعد باستطاعتي تمييز ما مرّ عما ينتظر دوره فى المرور، ولا ما حدث لى عما حدث لشخص آخر.

توقّف السائق أمام البوابة، نزلتُ ووقفت، أخرجتُ من جيب الجاكيت "الفاير" جنيها غريب الشكل والألوان، عجيب الحجم والرسومات، نظرتُ إليه وتذكّرت، لقد أعطاني أحد هذا الجنيه فى مهمّة قريبة، أو حلم ما. لا أتذكّر كان جنيها قديما، مددتُ يدي به للسائق فقال وهو يُطلق ضحكة دوت فى المكان:

- لم تدفع فى المرّة السابقة. ضعه فى جيبيك. ربّما فصلتُ لى به قميصا فى محلّك، فى أزياء الشرق، قميص يشبه قميصك الكتان اللبني الذى ترتديه الآن تحت الجاكيت "الفاير" لا تقلق. الحساب يجمع.

هذا الرجل يعترف بأنّى أحملُ فوق جلدى ملابس، ولكنه لا يعترف بذلك للناس من حولى، قالها وهو يستعد للانصراف، تركنى

وحدى كما فعل من سبقوه. سأخلع عني ملابسى حتى أريح كل من يراى، بالفعل، بدأت فى خلع الجاكيت، ثم فككتُ زراير القميص، والبنطلون، لم يبق إلاّ اللباس، فخلعته هو الآخر، جمعتُ ملابسى وصررتها فى الجاكيت، ربطتُ كُمّية كبقجة، وقبل أن أصل للرجل الذى تعرّف علىّ، السائق الذى عرف أنّى عمر الترسى، وصاحب محل أزياء الشرق، قبل أن أصل لسيّارته طار بها، فى لمح البصر اختفى، لم يبق منه سوى كلمات تطن فى أذنى بجرسها، ولم يبق من سيّارته إلّا غبار الطلعة الأمريكانى المتهوّرة. توقفتُ أمام البوّابة لأحدد ماذا سأفعل، إذ إنّى حتّى هذه اللحظة لم يكن باستطاعتى تحديد مصرى بشكل واضح، وقفتُ عاريا لأوحد الرؤية، خلف البوّابة يقف رجل الأمن الأسود النحيف الذى رأيته فى المرّة الأولى، اقتربتُ من البوّابة بحذر، لمستُ حديدها كأعمى يتحسس بشرة أنثاه، اقترب الرجل الأسود وضحك فبانت أسنانه البيضاء وقال:

- لماذا جئت إلى هنا، لماذا جئت مرّة أخرى؟

وقفتُ والملابس مصرورة فى يدى، تنسّمتُ هواء مُنعشا وباردا، ضربتُ المكان إضاءة قويّة وصادمة، التفّ حولى جمع من الناس، ملاحظهم جديدة لم أرها من قبل، فى نفس اللحظة التى رفعت فيها ملابسى فى يدى كراية استسلام ووقفتُ عاريا، كانوا جميعا قد كسّتهم الملابس.

القسم الثالث

الاختيار

(1)

الآن، أتذكّر كل شيء، كل ما حدث حدث وكأنه بالأمس، كانت العتمة سائدة، وأنا أهدق في طاولة فوقها أوراق بيضاء، وهي لي أن الأوراق المصفوفة لم تلونها الأفكار بعد، وبجوارها أوراق أخرى ملوثة، رواية لم تكتمل، وفي معصمي ساعة تسيرها تروس، وتدور تحت باغتها عقارب، حركتها بطيئة كالنبض، وثقل يدي بأستيك له حلقات مفصليّة على شكل جلد ثعبان، وجفنيّ، تشدّهما الجاذبيّة الأرضيّة فيشتعل خيالي، ليكمل عمليّة التلوّث، ويُتمّ الرواية التي لم تكتمل بعد.

سمعتُ دويّا حاداً كطبل النقرزان، وأطلقت فرقعات من مدفع مُزعج حوالى مئة مرّة، بعدها قام أحد التمرجيّة بتسليمي أبي، بالأدق أعطاني رأسه، حملتُ الرأس بيد، وبالأخرى تسلّمتُ بعض الكساوي القديمة الخاصة بجسد أبي المفقود، كانت مصرورة في بقعة، استوقفتني رجل الأمن الأسمر الطويل وأعاد لي رسوم الزيارة التي دفعتها قبل أسبوعين، تقريبا قبل أسبوعين.

في البداية، أوقف لي أحد الحراس حمارا، وفوق برذعته فَرَشَ سجادة ناعمة، جلستُ فوقها وأخذتُ الرأس في حِجْرِي، اهتز الحمار حتى أصابني الخدر، ونمت، قال لي أبي الراقد في دفء ملابسي:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

فنظرتُ للكيان الذي لم يعد يتعدى الشبر وأجبت:

- بلاد الله واسعة.

صمت أبي بعد ذلك وكأنني أعطيته ردا، حاولتُ تعديل فوطة من البقعة كانت مربوطة حول ما تبقى من عنقه ليبدو وجيها بقلدر المستطاع، في البقعة كانت مدفوسة بعض الشيلان الكشميرية الملونة، بدت قديمة الطراز إلى حد ما، ذكّرني برائحة مستديمة تخرج من ساعتي أم عقارب، مزيج من عرق قديم غير مُنْفَر مع رائحة مسحوق غسيل تعرض للبخار، تحتوى البقعة أيضا على حذاء أحمر فيه تعاريج غُرْز مشغولة، وسيور تنتهي بتوكة عريضة، يبدو الحذاء قديما هو الآخر، وبما آتني لم أكن أعرف شيئا عن أبي منذ أيام قليلة؛ فمن الصعب كذلك أن أعرف شيئا عن ملابسه. تحرك الرأس وأوشك أن يهوى من على ظهر الحمار، فتح أبي عينيه في اتجاهي وقال:

- هل خرجنا بمحض إرادتنا؟

- لا أعرف.

- هل نفحنا أصحاب المستشفى قراطيس الوهم؟

- لا أعرف.

كان الحمار يسير بنا عبر طرق تبدو معلومة له من قبل، فلم يتوقف ولا مرة واحدة، ارتفع أذان العصر منذ قليل، والشمس تُلَوِّنُ صفرتها الأرض، ويضيق الأفق ويختنق، نبدو أنا وأبي والحمار كما لو كنا نسير في عالم خيالي، أو كأننا وُضِعْنَا في قمقم كبير من نحاس، تمهيدا لاندفاعنا دخان كثيف من بزبوزه.

مسحتُ فم أبي بالفتة المعلقة تحت فكه، كان فمه مليئا باللعاب، ولما ارتاح وأيقن بأن منظره أصبح على ما يُرام سألني:

- هل أنت حاوى تأكل الزجاج وتلاعب الثعابين وتقفز من أطواق النار؟

- لا لماذا تسأل هذا السؤال الغريب يا أبي؟

- لو لم تكن كذلك فكيف أخرجتني إذن؟

كان من الواضح أن الرأس عندما يكون وحده يُفَكَّرُ بطريقة مختلفة، فقد شرحت لأبي في السابق بأنى لا يد لى فى إخراجهِ من البوابة، فهُم الذين أطلقوا سراحنا برضاهم، لم يبدُ عليه الاقتناع، لاحظت فتح البوابة على المصراعين، واختفاء المستجوبين فى الداخل والخارج، فمن شاء فليدخل ومن شاء فليخرج، بعدما سرنا لمسافة قليلة، أو بشكل أدق، بعد سير الحمار بنا لمسافة قليلة، كانت من خلفنا تسير حمير تحمل مرضى ومتعلقات وزوَّارًا، ولكننا كُنَّا فى أول الموكب، أو الدليل، اختفت المعالم التى أعرفها وظهرت أمامى بوابة

خشبيّة كبيرة، سُمكها يزيد على سمك جدار وأطول من بناءة من ثلاثة أدوار، يقف أمامها نفس فريق الحراس الذين تركوا بوابة المستشفى، ولكنهم كانوا أكثر عددا، يفتشون الداخل والخارج بدقّة.

وما أن اقترب ثلاثنا حتى فتحوا لنا البوابة على آخرها، عندما أفسحوا الطريق أصدرت البوابة الخشبيّة شحيرا كساقية فاسدة، تأكيد أحدهم أولا بأن أهل الرأس في حجرى، وسأله حارس آخر على الضفة الأخرى:

- هل وقع الجزاء؟

فأجابه الحارس الأول وهو يتفحص رأس أبي ويفرك أصابعه:

- وقع.

وقبل عبورنا أنا وأبي فوق دابتنا، هشّ حارس ثالث على الحمار بقرف، ركنه أمام البوابة ونحن فوقه، فقلتُ له محاولا لفت انتباهه حالنا:

هل يمكننا العبور؟

نظر الرجل لرأس أبي الراقد في حجرى، وقال بعد أن سحب شهيقا عميقا:

- سنجعل من على الأرض جميعا يحترمون الحراس.

- هل يمكننا العبور الآن؟

سألته مرّة أخرى فملّس على لحيته وضم أطرافها في قبضته وقال:

- بالطبع. يمكنكم. ولم لا يمكنكم جدا. تفضل.

* * *

الآن، أنت في طريقك للمستشفى لاستلام ما فقده أبوك، وقفت أمام البوابة كالمسولين، انتظرت في طابور طويل لا ترى آخره، كل هؤلاء لهم أشياء ضرورية عند الحراس؟ وقبل أن تكمل السؤال الدائر بداخلك، اقترب منك رجل أمن طويل وقال بصلف شخص محروم تقلد وظيفة مرموقة:

أنتَ تنتظر سعيد إبراهيم. أليس كذلك؟

تعال معي.

ترك الطابور وتذهب مع الرجل الذي هُيئ لك رؤيته من قبل، جذبك من يدك في أبوة واتجه ناحية بوابة أخرى أصغر من السابقة، ثم قال:

الجنة سيأكلها الدود. الجنة سيأكلها الدود.. الجنة..

أين سمعتَ هذه العبارة المملة من قبل. ولماذا يقولها الرجل الآن وأنت تستعد لاستلام أهلك؟ تدخل دهليزا قصيرا وتجتاز بعده ردهة منحدره، يبدو أنها كانت تستخدم لصعود وهبوط الكراسي المتحركة التي تحمل المرضى، بعد أن قطعت الطريق بالكامل فتُفتح باب كآته لسرداب، دخله الرجل لبرهة وجيزة، ثم خرج وفي يده

شخص يسير معه، كامل مُكَمَّل، لا ينقصه إلا الرأس، قميصُه مقلَّم
عريض من الكشمير، وبنطلونه مكوى وله توكة مضبوطة فوق
الكُبْشة تماماً، وحذاؤه لا ينقصه إلا ربط فردة واحدة وتلميع
الفردتين، قال حارس الأمن وهو يتسم:

هذا هو أبوك. سعيد إبراهيم. أين الخلاوة؟

مد يده اليمنى، وفي يسراه يتشبث أباك، يقوده الرجل، ويمشى
أبوك بانتظام شخص له رأس ويتمتع بجميع المشتملات، أخرج رجل
الأمن الطويل من جيبه زعبوطا مقلما من القطن، دسّه في كفك
وقال:

هذا يخصّ أهلك.

فتبقيه في كفه وتقول له:

حلال عليك.

قَنَعَ الرجل بالزعبوط، وضعه على رأسه بطريقة مُرتجلة وفكاهيّة،
وكَفَّ عن طلب الخلاوة. فسألته:

هل يموت أحد في المستشفى هذه الأيام؟

فرد وهو سعيد بأن يوجه له أحد سؤالا:

- كل الناس تموت. تموت يا به. وهل يبقى أحد. كلهم
بموتون.

سَلَمَك حارس الأمن الطويل أباك، ثم كبس الزعبوط في الرأس،
كان يبدو سعيدا وهو يترفع عن طلب الخلاوة ويمنح الرأس زعبوطه.
ولكن كالعادة، بدأت الأسئلة تنخر كل طمأنينة بداخلك. من أين
تعرف بأن هذا الرجل مقطوش الرأس هو بالفعل أبوك؟ لم تشعر
بأى نوع من أنواع كيمياء الجسد، لم تحس بأى انجذاب تجاهه،
ولكن لم يكن هناك طريق آخر، استلمت أباك وسرت في اتجاه
البوابة الكبيرة السوداء، خرجت وفي يدك ذراع تُضخ فيها الدماء،
ولكنك لا تستطيع إدراك أى مغزى غير ذلك، كان مزعجا جدا ألا
يكون بينكما حوار، من أى نوع، ولو حتى عن مواضيع مُكرّرة
ومملة، كنت حُرّا على آية حال، توجه أستاذك لأبيك كيفما تريد،
فأنت تعلم بأنه لن يسمعك أبدا. صحت في الرجل الذى أصبح
عليك أن تصاحبه في رحلة طويلة قادمة:

كيف يمكننى أن أشعر بك يا أبى؟

سألت نفسك، ضغط الكف المسكة بكفك ضغطة خفيفة
حانية، وقبل أن تلتفت توقفت الضغط وعادت الأصابع لسيرتها
الأولى، استسلمت للإحساس التقليدى الذى ينتاب أى ابن يلتقى
أباه بعد غياب طويل، أما الانطباعات الجديدة فقد نحيتهما جانبا،
كنت تشعر على آية حال بأنك حصلت على غنيمة، فأنت تمشى
مع أبيك. وهل يصدّق ذلك أبدا؟

تفتح الباب لآمالك كي تنمو ذاتيا، سيكون لك في رحلتك أب،
أب فاقد الرأس نعم، ولكن لا بد لأى شخص أن يكون أبوه ناقصا
أى شيء، لماذا تتخيل دائما بأنك لا بد أن تحيا مع أب مثالى؟

لطالما تخيلت أن أباك يعيش في مخاطرة صعبة، وعليك أن تقوم
بدور المنقذ الذى سيخلصه من آلامه عن طريق مغامرة تتسم
بالذكاء والحنكة، كان دماغك مدججا بالتحليلات العميقة،
والبريقة، وكان هناك مد تساؤلى يتوغل فى مخك بطريقة يصعب
عليك متابعته، أو حتى وصفه، ولكن وجود جسد ينتمى إليك كان
شيئا ممتعا على أية حال، ممتعا جدا.

(2)

أثارت الحمير خارج البوابة الخشبية زوبعة من الغبار، كانت الدواب تمشي متقاطرة ومندفعة بسبب المحدار الأرض، لفظتنا البوابة إلى الخارج بسرعة، كنتُ حريصا وأنا أحافظ على توازني، ورأس أبي يتدحرج في ججري، حلقتُ أمامي نفس الطيور التي كانت تحوم حول العنبر في المستشفى، طيور لا يوجد فوق جلدها ريش، لها فقط أطراف أمامية صغيرة، تتحوّر على شكل أجنحة تطير لارتفاعات محدودة، تقترب متى فتظهر عظامها المجوفة، وبطنها به ثنيات مترهلة كالكرش، تلتقط بقايا ثمار جافة ومنثورة على الأرض، ثم مرة أخرى تطير

أخرجتُ صورة أُمّي من جيبي، أخرجتها من جيبي، تأملتُها، كانت مبتلة من أثر العرق وحوافها مثنية، صورة صغيرة وجدتها تحت مرتبة جدتي، ولأنها صورة وحيدة فقد اكتسبت مهابة بشرية لا ينقصها إلا تدفق الدم، واكتسبت بعروق وأوردة تبض بالحياة.

صُغتُ الأرض بلون الغروب، بساط ذهبي ناعس وقابض، وحوافر الحمار تحرث أتربة مستمرة تطير في وجهي، كنّا أول الطابور، تبعنا حمير أخرى تحمل المُفرج عنهم، كان أحدهم يمتطي جملا ويمشي

خلفنا، وفوق ستم الجمل متعلقات كثيرة في حجم هودج، يمشى الجمل ببطء ولكنه يكاد يحاذينا.

عند ابتعادنا عن سلسلة البوابات التي لا تنتهي ظهرت المدينة من بعيد وكأني لا أعرفها، استحالت لمكان آخر، مكان لا يشق بسهولة مجرى في الذاكرة، الأرض الخضراء تحولت إلى تلال طينية جافة تبرز من بين شقوقها حرائق صغيرة وأدخنة كأعقاب سجائر كثيرة مشتعلة ومرشوقة في الأرض. وللمرة الأولى ظهر أمامنا أطفال، كانوا يقفزون حول الدواب، وفي كل الاتجاهات يلعبون، ولأول مرة أيضا، أرى أبي يتسم، لم يفعلها منذ عرفته. لم أكن مُدربا على قيادة الحمير، كان هي الأكبر هو التوازن فوق ظهر الحمار للحفاظ على الرأس، رأس أبي.

نفس الطيور الغريبة كانت تنفض أجنحتها القصيرة بالقرب من رأسي، فينتج ذلك ماء مخلوطا بفضلات، سائل له رائحة عطنة خمرانة وملمس زيتي مقزز.

تأملتُ المدينة الخامدة، لم يكن فيها دليل واضح على وجود حياة، كانت الأحجار كثيرة والأتربة تملأ الشوارع، ولون الحقول الأخضر استحال لصفرة قابضة، يغلب عليها لون برتقالي فاقع، وتميل طوال الوقت للون الأحمر، وأعشاب كثيرة وغريبة في الأرض نمت، تشبّت شواشيها المغبرة حتى طالت أبواب البيوت وكادت تدفنها بين شعابها، حتى البيوت شعرتُ بأنها قليلة ومتناثرة، كبقايا جثث في جيش مدحور، وشقوق الجدران، ينام فيها الثعبان مستريحا وغاطسا في أمان.

بعد مسيرة رُبع يوم بالحمار هُيى لى بأكى فى منطقة لا أعرفها، أو
أعرف بعضها، قابلى أحد المارة فاستوقفته، وسألته:

- يا أخينا. هل تعرف بيت جدتى؟

كان الرجل يحمل فوق كتفه فأسا، كان حافى القدمين ويلبس
هدوما بالية، قال والبؤس بادٍ على ملامحه:

- جدتك! هل لا تزال لك جدّة على قيد الحياة؟ أنت محظوظ.

جذبتُ الحبل الوضع الذى وجدته فجأة فى يدى فتوقف الحمار
عن المسير، تأملتُ الرجل أكثر وسألته:

- لماذا أنا محظوظ. هه. لماذا؟

- لأن لك جدّة على قيد الحياة. فأكتر ما تتمناه الآن أن نظل
نحن على قيد الحياة. ولتذهب جميع الجدات حدف إلى جتّاهن التى بها
يوعدن.

- هل حدث شىء جديد فى الأسبوعين الماضيين؟

- حصلت أشياء تُشيب الأقرع.

-

- الحراس المنتشرون فى كل شبر جعلونا نتمنى نزول الشيطان إلى
الأرض بأقصى سرعة ممكنة.

- لماذا؟

وعدونا بأنهم سيُشرفون علينا يحكموننا يعني. وسيحملون إلينا الطير بعد ذلك.

- وهل حملوه؟

- مات الطير قبل أن يفوا بوعودهم.

أخذ الرجل يدق فأسه على الأرض بقسوة كلّ منها ذراعاها وهبدا، وعند اقتراب الجمل المحمل فوق سبمه متعلقات كثيرة، قال الرجل بعد أن أخذ فأسه يحرث الأرض بتلقائية وهو يصيح في بصوت عال:

- أنا لم أقل لك شيئا. هه. لم أقل لك. أفهمت؟

نخست جنب الحمار بكاحلى فتحرّك للأمام بمحاذاة الجمل، نظرت خلفي فرأيت الرجل الغاضب وقد عاد يحرث الأرض كاي فلاح مخلص.

كان المشهد من حولي يتميّز بعشوائية، بعيدا عن أى جمال، وكان الغوص في ما أرى والاندماج في تفاصيله يعنى بالنسبة لى موتا بشكل ما، وبما أن الموت آت آت فلم أتعبّله، لقد حاولت فعل العكس، بنيت قصورا افتراضية في خيالى تعتمد على أفضل المشاهدات التى مرّت بي، كلما ضاقت نفسى تميت أن تكون أمتى على قيد الحياة، ستكون الدنيا وقتها خالية من الألم، أو على الأقل أَلها يُحتمل. كان مجرد تذكّرها يطفى خيالات جميلة تتسحب على كل ما أرى من مناظر وأشخاص. للحظات، انسحبتُ من المشهد بكل ما فيه، وهُنى

لى بأن أمى بُعثت فى ثوبها الأسود المعتاد، رأيتها وهى تقول لى جُمَلتها الأخيرة:

- اذهب إلى أهلك ووده. الآن لم يعد له غيرك.

لماذا تعلقت جُمَلتها الأخيرة وأصبحتْ هى كل ما أذكرك؟ كرماد تبقى من حرق متدين آسيوى، هل يمكن أن تكون أمى قد أعطتْنى عنوان أبى خطأ؟ والرأس الراقد فى جِجْرِى الآن، هل من الممكن أن يكون لشخص آخر غير أبى؟

توقفتْ، فتوقفتْ قاطرة الحمير من خلفى، أشار لنا أحد الحراس أمام طريق يتم تمهيده، طريق مواز لما نسير عليه، أشار الرجل صاحب الفأس بيده إلى الطريق الجديد فتوقفتْ لبرهة وسألته:

- يا أخينا. أين المباني الملونة والنساء؟

فتوقفتْ عن الحِثْ، رفع رأسه فوق كتفه مرّة أخرى وقال:

- أنت منهم إذن.

- مِمَّنْ؟

- الباحثون عن الزخرف.

- زخرف!

هشّ الرجل على ظهر الحمار وشدّ ذيله فقَمَصَ وحرن، أمكننى الحفاظ على رأس أبى فى جِجْرِى بأعجوبة، أما الطريق الممهّد فلم يمر منه سوى الجمل الذى يحمل فوق سنمه متعلقات فى حجم هودج،

نظر الجمل النظيف باستعلاء لهما رنا الساذج المتواضع والرغاء يفور
من بين شفثيه المتهدلثين.

* * *

كان مكان العنق المخذوذ يحتاج لضماذات، فقد سحن فجأة
وأصبح عليك التصرف بسرعة، تحسس أبوك بيده الأخرى مكان
الانفصال، ثم رفع أصابعه كمن يعاين قرصة ناموسة، من ماء السبل
غرفت مقدار كوب ورميته فوق عنقه، سمعت له فورة وصوت
حطب محروق يقطعطق، أصبح بعد ذلك أهذا وأحسن حالا.

كان الجسد العفى يسحبك فى أى اتجاه يريد، بدأت تكتشف
مزايا عديدة لصمت أبيك، كنت تروى له ما تيسر من قصص لا
تزال تتذكرها بعد كل هذه المرمطة، عن جدتك حدثته، وعن مرض
أمك، وعن المصححة التى تركتما فيها جدتك، لم يكن بمقدوره
تصحيح مسار حكاياتك، حتى لو أراد ذلك.

سرت مع أبيك ولم يكن بالقرب منكما أحد. جذبك فى اتجاه
شارع فرعى أرضه غير مسفلتة، انحدرتما فيه باندفاع الجاذبية، بعد
أن اجتزتما نصف الشارع تقريبا تلقى أبوك التحيات من الناس باسمه
الحقيقى:

"كيفك يا عم سعيد"

"كل سنة وانت طيب يا عم سعيد"

عرفوه من دون رأس أو ملامح، هل لأنه يسير معك. كيف وهم
لا يعرفونك أصلاً؟

كان الهواء الذى يلفحك منعشاً لدرجة شعرت معها بأنك
تستمع لأغنيات قديمة متمهلة الموسيقى، رائقة الكلمات، رقيقته،
وكان أبوك يسير بجوارك كنسخة جديدة بديلاً عن نسخته التى طالما
تخيلتها فى الماضى.

توقف أبوك أمام باب دكان، تجلس أمامه امرأة تبيع كسكسى
فى مواعين كثيرة، أزاحها بيده ونحى مواعينها بعيداً، ثم وقف
ساكناً، لا هامة له يرفعها أو يحنيها لتعرف مقصده، ولا رأس
يهزها لتحتمن ما يريد أن ينهك عنه. كان فوق رأس باب الدكان
لافتة مغبرة صنع عليها العنكبوت لوحاً متشابكة ومعقدة، لما تأملت
الحروف المكتوبة فوقها رأيتهما بدقة "أز.. أزياء.. الشرق.. الشرق"
ومن تحتها عنوان فرعى أوضح قليلاً "للأناقة أسلوب" وفور أن
وقعت عينك على اللافتة ضحك فيك تاربخك المنفلت دفقات قوية
محملة بشخصيات وأحداث، قبل أن يفتح باب الدكان عرفت مكان
بنك القصص ودرج المازورة وبرطمان الكستبان وألوان الخيوط. هُئى
لك بأنك رأيته رجلاً عجوزاً كان يأتى لتصلح المكن، له أنف
كبير يمكنه وحده حمل نظارة بسلسلة كانت تحز فى قفاه، يجرش حبة
نعناع بشكل دائم، ويحاول طوال الوقت البحث عن ثقب الإبرة.
ورأيت كذلك المحل الصغير، أزياء الشرق، وهو ملئ بالزبائن ليلة

العيد، تحديداً، وقت ظهور الرؤية، مفتى الديار يذّنب الناس ساعتين ليقول لهم غدا المتعم أو اليوم، والزبائن يحملقون في التلفزيون ويهللون في جميع الحالات. وأبوك يجلس كملك يتحكم بكلمة في رعيته، يتر العرق من كل ما بان منه، كل نصف ساعة يخرج من تحت يده بنطلون، يقذف به إليك لتفتح خياطاته من الداخل وتكويه، ثم تحضّر له واحداً آخر، تلصق له فزلين الكمر وتجهّز له كبشة، وسوستة من نفس لون القماش، طلباته كلها كانت بحابة، وبرغم ذلك يشخط فيك وينطر، وبعد أن يخف وطء الأقدام الوافدة للمحل يربت على كتفك ويعتذر بلطف عن كل ما هز كرامتك أمام زبائنه المتعجلين دائماً.

لطالما شعرت وأنت خلف هذا الباب المغبر بأحاسيس متضاربة، بين عزّة مفترضة يطلبها أبوك ومعاملة مهينة تصل حد المرمطة أحياناً.

كيف هُيت لك هذه الحوادث وأنت لم تر أباك من قبل؟ أنت لم تكن يوماً خلف هذا الباب، ولم تعمل بمهنة الترزى ولو لدقيقة واحدة.

(3)

تخشب عمودى الفقرى من الجلسة، كل هذه المسافة وأنا فوق
 ظهر الحمار؟ كنتُ طوال الطريق حريصا على توازن رأس أبى لى
 جبرى، قطرات العرق النازز من كوعى وذلقى كانت تصنع ثقوبا
 صغيرة فى الرمال، ارتطامها أكاد أسمعها، ثقلت جفون الدواب
 وتخذرت أبدانها، فركناها تحت أشجار صفراء كانت فى طريقنا،
 بجوارها نباتات جافة على شكل هيش، انكمشت الحمير على نفسها
 وكأنها نائمة، لحق بنا فى الراحة باقى القطيع، تكوّم المرهقون من طول
 المشوار، كنا نتلاحق ونرمى ظهورنا ونسندها على جذوع الأشجار،
 والشمس تعكس ضوءها فى أعيننا. رفعت أبى من جبرى ووضعت
 بجوارى، مسحت فمه بالفتة المعلقة فى ما تبقى من عنقه، من كثرة
 مسحى لفمه أصبحت الفتة خفيفة النسيج كالنسالة، اصفرّ لونها
 الأبيض. وجعل العرق ملابسى كالمفسولة ويمكن عصرها.

نظر إلى أبى، انتهك ما بداخل دماغى من ترتيبات، وقبل أن أتمن
 فى نظرتة وأحاول تفسيرها حدث هرج محدود فى صفوف المضطجعين،
 سرعان ما تحوّل لحركة ونظرات فى اتجاه واحد، عندما تبعث نفس
 الاتجاه رأيت الهودج، أو بالأدق، الجمل الذى كان يسير بمحاذاتنا،

ومن فوقه صندوق خشب كبير له نوافذ مُعتمة وخيوط منسدلة كشراشيب رفيعة من كل اتجاه. توقّف الجمل في مكان صعب، لم يفقد توازنه برغم تمترسه عند بداية منحدر، نزل من الصندوق خمسة رجال أشداء، تكاد ملابسهم تُضيئ من شدة البياض، أما لحاهم فمصبوغة بلون قشرة الرمان، وقفوا أمامنا واقترب أحدهم منّي وقال:

- لماذا تجلسون هكذا؟

- نمتريح.

- انصرفوا من هنا حالا انصرفوا. فصاحب الجمل يبلغكم ذلك.

بعد أن فرغ من إملاء أوامره انصاع من اضطجعوا حولنا للأوامر كذلك، كانت حركاتهم خفيفة بلا ضجيج، يروحون ويحينون على دوابهم بنعومة يحومون حولنا كالفراشات، تشممت الحمير ذبول بعضها، ثم وقفت مصطفة في طابور معوج تنتظر النخس أو الضرب، هبّت علينا ريح مغبرة لها رائحة زخخة، ثم ازدادت الرائحة وفاحت بالعفن. بعدما اجتزّت المنحدر وطوارا مهشّما يبدو أنه كان طريقا قديما رأيت المدينة واضحة. بساط من خليط أتربة وغبار بلون المشمش الناضج، يمشى الناس في أياديهم تروس مدحجة تشبه عجلات حريّة صغيرة، يجرون في كل اتجاه، وكأنّهم يستعدّون لحرب، اقترب منّي أحدهم وفي يده آتله العجيبة وقال:

- خذ. هذه لك؟

خُفْتُ من جهامته فأخذتُ مضطراً. وزَعُوا على كل من يسير في السرب آلات مشابهة، ولَمَّا سَأَلْتُ الرجل المتسرع عن جدوى هذا الشيء الذي كان مِلْكه وأصبح بقدرة قادر في يدي، فقال وعينه تلمع بنشوة غريبة:

- أَلَسْتُ من مؤيدي الحِرَّاس.

- نعم.

ثم أشار لباقي الطابور من خلفي وقال:

- وهؤلاء؟

- نعم. مثلنا أيضاً. ولكن هل هذه التي في أيدينا أسلحة؟

- إنما أسلحة خاصة بالمؤيدين فقط. وزَعَاهَا صاحب الجمل.

كان يكفي التمسُّح في اسم الحِرَّاس، فللكلمة وقع السحر على مسامع الرجل، ما أن نطقْتُ بها حتى انفتحت كل الطاقات أمامي، تركونا غر بيركات صاحب الجمل، من يكون صاحب الجمل هذا؟

أصبحتُ وجهها لوجه مع مدينتي التي أذكر، اجتزتُ الرجل وقالته، رأيت شارعا أظن أن له بقايا ذكرى في دماغي، هُنا كنتُ ألعب، لا، هُنا، كانت الذكرى مُشوَّشة، كأني تركتُ مدينتي منذ ألف عام، ارتبكتُ الحسابات الزمنية، على مدد الشوف رأيتُ أجساما هُيئ لي ألها لحوانات الحقول، كانت نافقة ومتوزعة على المكان بعدل، كل بضع خطوات جثة جلدتها مقشَّر وبدنها متنفخ، متباعدة

الأرجل ومتصلبة. كنتُ في قلب الحدث أفكرُ بشكل مختلف، فنحن نتخيل المأساة قبل حدوثها بأشكال مختلفة، أما المأساة نفسها فشيء آخر.

أمسكتُ رأس أبي بيد، وبالأخرى وازنتُ الآلة الحربية الصغيرة على مؤخرة الحمار المسكين، من خلفنا كان يسير الرجل الذي أعطانا الآلات العجيبة، ربما ليقس مدى ولائنا للحراس من خلال تصرفاتنا وتحركاتنا، كان يمشى بجواره رجل حافٍ لا يتعل شئاً، يحمل إبريقاً به ماء، قال للرجل الذي كان يبدو قائده بشكل ما:

- المغرب. المغرب.

ورد عليه الآخر:

- فلنتوضأ.

شمر الرجل وتوضأ أثناء المشي، كنتُ قريباً منه لدرجة أنني سمعتُ صوت حبات المياه فوق الرمال الساخنة، تابعت به شيء من المتعة وهو يهرول، والمياه تترجرج في كفّيه قبل أن يلطم بها صدغيه في حركة متسرعة لا تلمس فيها المياه وجهه تقريباً.

رفعتُ عيني من على الأرض، فرأيت عند المسافة التي تحجب السماء من الانطباق على الأرض قبة من دخان، لم أر بسببها قرص الشمس في غروبه المعتاد.

تمتم الرجل بما يشبه الأدعية، كلمات تفتت معانيها على باب المقاصد، سمعته والحمار يسير ببطء، ورأس أبي كادت الشمس أن

تشويه، ورأيتني وحمارى ورأس أبى كما لو أن طفلا قصنا من المشهد وهو يلعب، خرجنا من الصورة وأصبحتُ أرى ما يحدث من حولى وكأنه لا يخصنى، ولا يهمنى، الآن، أصبحتُ على قناعة تامة بأن مقاصدى ليست بالضرورة هى نفسها مقاصد العالم، أصبح لكل منا شأنه يديره منفردا، لم يعد الكون يرقد فى تصوراتى عنه كما كنتُ أظن.

هئى لى بأنى أرقد فى قرطاس من رصاص، معتم وسطحه أملس، مسحوب القمر عريض الفوهة، أجاهد فى الخروج منه ولا أستطيع، ولا يحيل هو بفعل الجاذبية فيدلقنى لأرى النور بالخارج. أحسستُ بدماغى ملقفا لمطحنة من احتمالات لا يربطها شيء، كأن فخا ما لم يزل فى طور التشكل ينتظرني فى مكان مجهول. عدتُ بذاكرتى للخلف، استعدتُ نقطة لم تعد الثانية الأخيرة، بالضبط منذ ورود كلمة "الثانية الأخيرة" ثم انطلقتُ سارحا حتى بداية الوعي، مهمتى الآن كقصاص الأثر، أتتبع خطوات أعرف بدايتها ولا أرى لها نهاية، أكبر ما أخشاه هو أن أنسى كل شيء، بما فى ذلك ذاكرتى نفسها، كانت الأيام تتشابه لدرجة التطابق، حتى أئى كنتُ أتعجب من أن أظافرى وشعرى يطولان. وهئى لى بأن جهة ما تحقق معى، لم أتأكد من ذلك بشكل نهائى، ولكن شخصا ما مر بي وسألنى:

- ما اسمك

وأجبت:

اسمى عمر سعيد إبراهيم. شخص ذهب لمكان ما، أعتقد مستشفى، نعم مستشفى، ليزور أباه، ولم يجده، ولم يستطع الخروج من

المستشفى. أنا عمر سعيد إبراهيم، أمى ماتت دون مبالغة فى إظهار عواطفها، وجدتي، لا أعرف مصيرها بشكل مؤكد، وفى يدى رواية غير مكتملة، بين الحين والآخر تلكزنى شخصيات معينة لأقوم بكتابتها، تُصحبني من النوم، لا أتذكر منهم الآن إلا اسمين فقط، فايز وحسن. هل قابلتهما فعلا، أم أيقظاني لأضمهما لمن روايتي؟ فقبل الكتابة تكون الذاكرة كقماشة بيضاء، لا نقوشات فيها ولا أحداث، تتخلق الأحداث وتسعى إلى الشخصيات عندما أعقد العزم على التذكر، وذاكرتي كانت تخونني كثيرا، وتنهى لوجودها كثيرا، لكنني فى الحالتين كنتُ أعجز عن الإمساك بها، فالإنسان يأتي للحياة بذاكرة سادة محمولا، ويتركها بذاكرة سادة محمولا أيضا، يترك النقوش والألوان على عتبة المغادرة، ولذا، فقد قررت ألا أتركها بالكامل، قررت أن أكتب رواية، كانت الأفكار تراودني، فأتذكر، ولا أستطيع الفصل التام بين ما أعيشه بالفعل وبين ما يُهيى لى باننى عشته.

قبل أن تتغير المدينة كنتُ أحب جمع أصداف البحر والرسم عليها، نعم، أتذكر ذلك جيدا، كنتُ أحب الرسم على الأصداف، أسمع الآن وشوشتها، أسمعها وهى تفور بالكلمات:

"الجنة يأكلها الدود.. الجنة يأكلها الـ..."

* * *

فقد أبوك حواسه الأربع دفعة واحدة، وبدا اهتمامك به كأي اختيار ذاتي تفعله بإرادة كاملة. كانت حركات طائشة ولا تعرف لها معنى، تشعر فيها بشيء من الارتجال. تحاول الابتعاد قدر استطاعتك عن مطاردة الأفكار الشاردة حتى لا توقعك فى أسرها،

ترى حياتك بأكملها عبارة عن فتلة ملضومة في إبرة، أنجزت بها أعمالا لا تتذكرها، وأصبح كل همك أن تعقد الفتلة مرة أخرى لتمارس بعض الإنجازات المتبقية، الآن، وبوثبة واحدة يمكنك التوفيق في مهمتك، فوضى ساحرة يجتاحك مذاقها وتحاول تمثيلها، تصادمت النقااض في إعادة اكتشافك لنفسك.

وتروح في غفوة مسكرة، ترى بعدها جسد أبيك هلاما ينبت من لون باهت، وميض ظل يوخذك وكنت على وشك الانصياع له، تماما كأنك في فترة قيلولة وستعاود نشاطك قريبا.

ولّى أبوك وجهته في آخر الشارع، كانت تقف هناك جميزة عجوز ووحيدة فوقها تتململ الطيور، كانت وقفته الثابتة توحى وكأنه يرى، بعد الوقوف لمدة طويلة تحسس أبوك ثقباً في كالون باب الدكان، ثم انتشى باقى جسده وتمطّع عندما تخلل الهواء مسامه، انتحت بائعة الكسكسى جانبا ولكنها ظلت تقلّب بضاعتها بمقصوصة ألومنيوم مقطوشة اليد وملفوف عليها شريط من قماش.

سيرت مع أبيك وأنت لا تعرف مصيرا محددًا لما سيؤول إليه حالكما، في نهاية الشارع، دست فوق تضاريس لها في نفسك ذكرى غامضة، وأبوك بجوارك واقف، بدون رأس، كشيء نما في موطن غير أصلى، أو كطائرة تستعد لأن تكون دبابه. طالما تخيلت له جبهة من فولاذ ووجنتين من ذهب وعين قوية من فضة، ولكن كل ذلك تناقض مع الجسد السائر بجوارك كجوال مُعبأ بالبطاطس. وسألت نفسك، هل هذا البدن هو نفسه الذى فازت أمك بابتها منه ذات ليلة؟

(4)

وسط هذا الخراب، وبينما رأس أبي في حجرى توقف بنا الحمار،
أنزلنا الرجل الذى كان يتوضأ أثناء دخولنا للمدينة، حرصتُ على
الرأس، احتضنتها وضممتها إلى صدرى لكى لا تنفلت وتندحرج،
أمسكنى الرجل من يدى وطاف بي، خطونا فوق تلال من الأتربة لها
لون الدخان ورائحة الحرائق، عبرنا حجارة صغيرة، وأكوام طوب
كفوائض هدم البنايات، والبيوت التى تركتها تناطح السحاب تقزمتُ
وصارت من دورين على الأكثر، كائى فى قرية شيدت منذ مئة عام،
وسألتُ الرجل الذى كان حريصا على الإمساك بي:

- هل هذه هى المدينة؟

- نعم. ولكن بعد استرداد الحقوق وإرجاعها إلى أصحابها.

حاولت إعادة كلماته إلى مادتها الأولية، ما هى الحقوق ومن هم
أصحابها؟ كانت الصور التى تتجسد أمامى كلها آتية من الماضى
البعيد، قبل أن تتشكّل لى عينان، ولسان وشفتان، هُى لى بأن أمى
هى أول من سكن ذاكرتى أثناء التخلّق الأولى، ربما بسبب حكاياتها
عن صعوبة إنجابى، أو بتدقيق أكثر تأخر ولادتى لخمس سنوات كاملة،
فبعد زواجها من أبى بستتين، لم تظهر عليها أعراض الحمل، لم تلفظ ما

في جوفها ولم يقب بطنها أو تعانى من أى دوار. اقترحت جدتى على العروسين إعادة مراسم الزواج في نطاق محدود، لبست أمى الفستان الأبيض المعمول من الساتان والشفون، ولبس أبى البدلة الاسموكن السوداء للمرة الثانية، زفتهما فرقة الدافلين ودوى بجوار البيت طبل النقرزان، ولكن ذلك لم يُجد، ولم يكن له أثر من نفع، ففكرت جدتى في اقتراح آخر، صنعت دُميتين خشبيتين بنفسها، ثم كستهما بملابس فاضة عن تنجيد وسادة، زوفتها بالكرائش وشرائط الدانتيل، بعد ذلك طلبت من أبى عدم دخول غرفة النوم إلا بصحبة أمى، وسبقتهما جدتى، وضعت الدميتين بجوار الوسادتين بشكل فيه زوق وجمال، ثبتت العروسة على وسادة أبى والعريس الخشبي على وسادة أمى، وقبل دخول العروسين الحديثين للغرفة كانت جدتى تطلب من أبى أن يرتدى ملابسه الداخلية بالقلوب، ويضع على صُرتة قرصا من الرصاص في حجم غُملة، وطلبت في المقابل أمى أن تربط أمى تحت قميصها جزءا صغيرا من شباك صيد مستعملة، وبعد ليال سبع صنعت جدتى عروسا ورقية وثقبتها مرارا بينسة شعر، ثم ربطت أحجية كثيرة استهلكت كراس، وأشعلت في البخور النار لِيُتَوَج كل مجهوداتها وتعم الفائدة، وبرغم ذلك باءت كل المحاولات بالفشل. أمّا في عام النضوب الثالث فكل الأشياء التى فعلتها أمى من أجل مجيئى كانت مقرزة، تحممت بماء غُسل مَيّت، ورموا فوقها ديوكا مذبوحة بلا رؤوس، كانت تتخبط بدمها الساخن فوق جسد أمى العارى، مرت المحاولات المضنية بأفعال لا علاقة لها بالإنجاب، كالكى ورض كئوس

الحجامة، ووضع مفتاح أحد الأضرحة فوق ظهر أمي، وبطنها متكى على قطعة كبدة نيئة، والتبرك بحمل مولود قبل بلوغه يومه السابع. بعدما أصابهم اليأس ترك ثلاثهم المسألة برمتها، جدتي وأمّي وأبي. مرّت خمس سنوات تحوّلت فيها الحياة إلى مخزن للكآبة المستديمة، وعندما خلّت أدمغتهم من الموضوع نهائيًا جاء الفرج من حيث لم يحتسبوا، تعلّقت لسبب مبهم في أحشائها، أنا، أنا وحدي دون غيري، وحتى بعد حمل أمّي كان لجدتي دور لا يقل أهمية عنه في مرحلة النضوب، كانت تنهر أبي لو أيقظ زوجته الحامل، فذلك سيعيق تشكّلي في تخلّقه الأوّل. وبعد ولادتي لم يخل البيت من تحذيرات جدتي أيضًا، فقبل أن يفركوا رأسي بالشّبة ويسقوني الماء بالسّكر قالت جدتي لأبي:

- لا تدخل عليها وأنت حالق ذقنك.

- حاضر.

- ضع بجوار رأس المولود مقصا لكي لا تقترن روحه بأخيه في طبقات الأرض البعيدة.

- حاضر.

أحسستُ بأن انفصالي عن رحم أمّي لم يحدث يوما، لم أعبر تلك المرحلة بعد، أو على الأقل لم أعبر طقوسها.

كان مجرد حفظ توازني يحتاج لجهود كبير، الرجل الذي تواضاً منذ قليل سحبنى من يدي برفق، خطونا على الانقراض، أخذ يُعلّمني كيف

يمكننى تفادى الجثث الملقاة فى طريقنا، وكيف يمكننى دفن من لم يسعفهم الحظ ليؤمنوا بالحرّاس. مكّنى الرجل أيضا من هضم معارف جديدة، كيف تتحمّل الجثث ضغط الهواء وسقوط المطر، تُركوا عُرضة لعوامل الجو ونُش الضواري. وبعد أن كنت منشغلا بأصدافى التى أرسم عليها. أصبح مطلوبا متى فجأة أن أتعلّم كيف تُوارى الجثث.

طار غبار محمّل بروائح الجيف، اختلط ريش الطيور المتشرّدة بالأبدان المنتفخة، وأصبح علىّ التدقيق عند وضع قدمى على الأرض، فعلى عمق شبر واحد مفروش بساط من الأبدان الهامدة، يهزّها العيال الذين يقفزون بلا نهاية، وقرسها حيوانات ثقيلة بخوافر تتهز لها الأرض، وبدلا من أن يعلّمونى كيف يمكننى أن أعيش علّمونى كيف أتعامل مع الأموات. ركضت حتّى استوقفتنى، رأيتها ممدّدة على الأرض، نعم هى، بدون غطاء يستر جسدها النحيل، كان جزءا من قدميها مطمورا تحت الأنقاض، وتنورتها بالتخاريم المشغولة محسورة حتّى ركبتيها، محدّقة فى السماء، تحديقها مخيفة، فى نظرتها نفس الحدة والجنون، نعم هى، بلحمها وشحمها، ولكن بلا جراك، ولا روح، شعرها هائش كشوشة ذرة هزّها ريح، نعم تأكدتُ بأنّها هى نفسها، جدّتى.

* * *

هل يستحقّ تذكّر ما فعله أبوك فى الماضى كل هذا العناء؟ إذا كنت الآن تود نسيان الحالة التى تعيشها، فكيف تتحمّل تفسيرات

لأحداث عشتها وراحت لحالها؟ لو فكّرت فيما فعله أبوك بالأمس
فلن تفكر فيما يفعله الآن، حسبة مفروضة سلفاً.

عندما وصل أبوك إلى آخر الشارع توقف طويلاً، وعندما
وصلت قرب نهاية الشارع لتلحق به رأيت أمامك مدينتك الصغيرة،
البعيدة، هي المدينة نفسها، مطلية بكرم الغروب، أنت الآن بجوار
أبيك، كتفا بكتف، لم تشعر معه بتلك الأحاسيس التي كانت
تجتاحك في حضرة أمك، عندما كنت تتدثر معها بكليم صوف،
تلاحظ انتظام أنفاسها عندما يثقل لسانها ويتوقف عن ذكر
الحكايات، تغفو ولا تشعر بعد ذلك إلا بيدها وهي تمتد بكوب
حليب في دفء دعة العين.

لعبت الريح بالزروع القليلة من حولكما، وطارَت عصافير كثيرة
من فوق شجرة كافور على مدد الشوف، وأبوك يقف ثابتاً، قدماه
مدسوستان في حذاء أحمر، صنعت له العصافير رأساً مستعاراً، هذا
الرأس بالذات يجعلك تصرخ، تستغيث، فهو صغير ويشبه رأس
جدتك، له نفس الاستدارة والهيئة، لم يعد بوسعك التنقيب عن
الأحزان، فجذتك لم تكن تتورّع عن سبك، حتى في أحلك
الظروف، فعندما أغلقوا القبر على أمك بالرمل المبلل بالماء والجبس،
وبينما يثرثر رجل بشوش بكلام مُعاد حد الإملال، وقفتُ جذتك
مشدودة الصدر، وكان من ألقوا بها في الحفرة منذ قليل لا تمت لها
بصلة، عينها باردة وغير معنّية بما يحدث، ولا يشغلها حزن من

حولها، وقفت بجوارها وأنت تحاول حثها على تمثيل الحزن أمام
الناس فدفعتك يديها النحيفتين وقالت:

أمك كانت أحسن منك عليّ. وكنت أحبها أكثر منك. أما
الآن فهي لم تعد سوى شيء، شيء ميت لا يمكنه نقر حفنة رمل
مبللة والخروج من فتحة صغيرة تعلو عنها بمقدار شبر واحد.

برغم قسوة كلامها فإنّها كانت تبدو ضعيفة جدا، سنتها
الوحيدة تنقر لثتها ببطء، يداها ترتعشان، قدماها لا تحتملان الوقفة
أكثر من ذلك، اقتربت منها، حاولت لمس كتفها الضامر، كنت
تريد أن تحيطها بالسعادة وبالأحزان في وقت واحد.

(5)

المحسرت مساحة الحتية وصيلة الرحم عندما رأيتُ أحد الحرّاس يقترب مني، تركتُ جدتي الميتة وفقرتُ بعدها عشرات الخطوات، كل ما كان يشغلني هو كيف أنجو بما أحمل، تجلّت أغراض الرجل في محاولة خطف أبي، لن أتركه لهم مهما حدث، تبعني نفس الطيور الغريبة ضاربة أجنحتها بالقرب من رأسي، وتبعنا حرّاس آخرون، يسعون للقبض عليّ، يركضون ورائي كما يُطارِد النشّالون، لم أعد أعرف لماذا أجزى، ومن هم أعدائي الحقيقيون؟ فقدتُ أمي منذ أسبوعين، وفقدتُ أبي قبل أن يتشكّل وعيي، وها هي جدتي تركتها وجبة للطيور الجارحة والحيوانات البرية الشاردة. لم أعد أشعر بشيء من حولي، أصبحتُ أملك رأساً فقط، رأساً يتشبّث بدفء بملابسي، لا يريد أن يتركني، ولا أريد أن أتنازل عن شعرة منه، لم أعد أعرف إلا هذا الرأس، مهما حاولوا إقناعي بالألا فائدة منه. كنتُ أركض كالجئون، والناس من خلفي يركضون، يمدّون أظافرهم تجاهي ككلايب، جلافتهم المتوحشة تتجلّى في مطاردتهم العشوائية، داسوا على كل الجثث التي قابلتهم، غاصت نعالهم الغليظة في الأحشاء المكشوفة، أصبح هدفهم بالنسبة لي واضحاً بشكل كبير.

تجمعت المشاهد الصغيرة من حولى وصنعت مشهدا واحدا كبيرا، كنت أجري خائفا من أن يُعلقنى هلب أحدهم، يبدو أن الرأس أصبح هو مطلبهم الوحيد، تجمعت أهدافهم كلها فى كيفية انتزاعه منى، حاولت أن أستعرض الوقائع كما مرّت أمامى منذ أسبوعين وفشلت، كنت أشبه بشخص معصوب العينين، لا أعرف كيف دخلت، ولا من أى منفذ خرجت؟ أى مكان لفظى فصرت على ما أنا عليه الآن؟ أشعر برأسى يطن بأزيز ذباب بلا عدد، هل سيعقدون مجلسا ليحكموا فى النهاية بانتزاع الرأس منى؟ أفكر فى كل ذلك وأنا أركض، نبحث أخيرا فى الابتعاد عنهم بمسافة معقولة، اقتربت من الإفلات، لولا تعرّى فى الجثث الملقاة بلا عدد، روائح النتن تُسدل غيامة قويّة على تركيزى، كانت الأرض قمتز من تحت قدمى، والبنائيات والزروع تنفض من أقل حركة، وهذا ما حدث لى تقريبا، رأيت الدنيا من حولى قُرب معى حفاظا على الرأس، وشعرت بأن خطواتى لم تكن واسعة بشكل كافٍ، وبرغم ذلك كنتُ أسبقهم بمسافة لا بأس بها. بعدما تركتُ البقعة المتشعبة بالجثث وصلت وحيدا لأرض خلاء، لا هى صحراء ولا هى مزرعة، تقف فى منطقة الوسط، بساط رمادى فاتح فيه بضع أشجار مُعمّرة وزرع صغير خاب حصاده فوق ثماره وجفّ، جلستُ تحت شجرة جذعها سميك، وضعتُ رأس أبى بجوارى، كان قد ضرب تعسيلة محترمة وبالكاد حاول فتح عينه وقال:

- لماذا لم تتركنى لهم وترتاح؟

طرقعتُ ظهرى وفقرات عنقى وقلتُ:

- لأننى بدونك سأفقد كل شيء. تركتُ جدتى بعد موت أمى فماتت هى الأخرى. ولم يبق لى غيرك.

كانت الثمار الجافة مُرّة ولاذعة، حاولتُ استطعامها لألقم أبى واحدة فألقيتها بسرعة من يدى. تفقدتُ الأجواء من حولى قبل أن يحل الظلام، رأيتُ لافتة كبيرة مُعلّقة على أحد المحال التجارية المهجورة، مكتوبا عليها بخط كوفى قديم ومتآكل: "مخصص لشراء جميع أنواع الرءوس كبير وصغير، والعقود سارية حتى فترة وجيزة. نتعهد بشراء الرءوس بأسعار ممتازة"

لما ظننته مسمطاً لبيع لحم الرأس واللسان ضحك أبى، كانت هى المرة الثانية التى يضحك فيها، وقبل أن أشرع فى السؤال قال:

- انظر داخل المحل.

دقتُ النظر بالداخل، رأيتُ لوحة بالزيت مرسوما عليها رأس إنسان محتقن الوجه، كأنه صُوّرَ رغما عنه، هل يسلقون رءوس الناس ويسلخونها؟ سألتُ أبى فردّ وقد اختفت ابتسامته بسرعة:

- كل ما تقوله لا علاقة له بالحقيقة.

وقبل أن أردّ انتهتُ لوجود بيضة داخل المحل المعلقة عليه اللافتة، أخذتُ أبى وذهبت للمكان الذى ترقد فيه البيضة، تخطيتها ولمسّت على الأرائى بالداخل، كانت أوائى نحاسية عليها طبقة خضراء غامقة راكمتها أزمنة متعاقبة، ولكن كيف توجد فى هذا المكان المهجور

بيضة؟ هل يمكن أن تكون بيضة لثعبان؟ إن لها استدارة بيض الدجاج العادى الذى كانت أمى تسلقه كل صباح، وربما أكبر قليلا.

تحسست يد غريبة كفى ثم ربت عليه بمنتهى الثقة، التفت فوجدت رجلا له لحية بيضاء كالقطن، يتسم ابتسامه لا تُطمئن، ثم قال وهو ينظر لرأس أبى التى طوّقتها بذراعى:

- لماذا تعبت نفسك يا بنى؟ لماذا جئت بالرأس بنفسك حتى بابنا. فعندنا المندوبون أكثر من الهم على القلب.

استشعرت الخطر على الرأس فضممته بكل قوة، وربما بكل قسوة إلى صدرى. لم أعد أملك أى قدرة على الركض مجددا، وفى نفس الوقت، لم يكن عندى أيضا أدنى احتمال للتنازل عما فى حوذتى. اختفيتُ من أمامه بقفزتين، حَمَتُ بأن الرجل العجوز لا يمكنه اللحاق بى حتى وأنا فى هذه الحالة المزرية من الإعياء، اتشبثُ برأس أبى لدرجة الاستموات، وبعد مسافة ليست قليلة تحت طرف جلباب الرجل صاحب اللحية البيضاء يقترب منى، لم يكن يذل مجهودا فى عملية الركض، ولكنه كان يشبه الطيور بحرسته الناعمة، قدماه لا يرفعهما من على الأرض، ولكنه يندفع برغم ذلك للأمام، فى اتجاهى، بلا مجهود، قفزت بكل قوتى ككائن بدائى يجوب الغابات، وطرف جلبابه الأبيض يكاد يحف فى قدمى، والرجل يتسم بشكل مرعب هيج أعصابى، ثم بطريقة لا أعرف كيف حدثت أصبح فى محاذاتى، يسر بجوارى جنبا إلى جنب، وسألنى:

- إن لم تفعل ما أريد فأنت الخاسر.

-

- انظر إلى هذه.

ورفع بين أصابعه البيضة التي رأيته في محله، كان مكتوبا على
قشرها بخط متعرج كأنه لطفل "الله" اطمأن قلبي وتوقفت عن
الركض، تأملت البيضة في يد العجوز، وأثناء اندماجي في فك باقي
شفرات النقوش أعطاني الرجل إيّاها. وقبل أن تلمسها يدي خطف
الرأس مني وابتلعه الظلام. شعرت بالخيبة، تراخت أعصابي وتاه
تركيزي، لم أعد أدري أين أقف، ثقلت يدي بالبيضة، هدني الإرهاق
التواصل، كانت البيضة ثقيلة أكثر مما يجب، وكأنها معبأة بالزئبق.
رميتها على الأرض بقسوة، لم تنكسر، رفعتها مرة أخرى ورميتها،
فتدحرجت بعيدا، ولكنها أيضا لم تنكسر، تأملتها جيدا، لم تكن بيضة
دجاجة، ولا ثعبان، كانت بيضة من حجر.

* * *

انحرف أبوك، ظل يميل تدريجيا نحو شارع واسع وقطعة أرض
مترعة فسرت من خلفه، ثم عدت بأقصى ما عندك من همور،
وجدته يميل تجاه شواهد مطلية بدهان أبيض قديم، مرشوقة وسط
قباب وقع بعض آجرها، حجل على كعب واحد ليحصل على
المزيد من الانحراف، حاولت إبعاده قدر استطاعتك، ولم يتعد،
حاولت مراءا، ولم يتوقف عن مقصده الغامض. كان جسده قد
تصلب وظهرت له "مجانص"، كنت تشعر به بشكل ما.

برغم كل شيء لا يمكنك التنازل عن أب وجدته في طريقك، فتعطّشك لوجوده في حياتك جعلك ترضى بأول معروض، ولكن بعد اقترابك منه أكثر لم يعطك إلا مزيداً من الظم، تحاول جاهداً أن تقول الجملة كما تتخيلها منقوشة في ذاكرتك، بعيداً عن دائرة الإدراك الخارجى. لم تشعر بأن أبك له وجود، ولكن كان له مضمون في مساحة من مخك لا تحسّها بسهولة، نفس المساحة التي تحتفظ بصورة جدتك عندما كنت طفلاً، عندما كانت لها سنة واحدة وبدن أعرج، ولكن الفرق بين جدتك وأبيك أن الأولى كانت في زمن سريع تلاشى، أما أبوك، فكان ذكرى ثم نجسد في كائن تراه أمامك. لم يبق من أثرها إلا إحساسك قبل أن تقابله، إحساس جميل برغم كل شيء، أن تُسبل ما تتخيله على أشياء واقعية تراها بالفعل، أن تختزع الحياة بداخلك أولاً

أمسك أبوك عن المشى وتوقفت بجواره، ماذا يريد من مدافن الأجداد؟ أن يلقنك درساً أخلاقياً عن عظة الموت؟ البحث عن الأسلاف لا يقود في الغالب إلى شيء، الآن، يبدو نشاطك الذهني بطيئاً، الأفكار تفسد وهى في طريقها إليك، ركام من الصور المخزونة، لا يجمعها إلا ارتباطات تأتيك بشكل غير منتظم، ليست طازجة، لكنّها لحظتك على آية حال ويجب عليك الدفاع عنها، ولو بدون طاقة تعبيرية، فرفيقك لا يتحدث، ولذا، كنت تحاول طوال الوقت أن تبحث عن مادة كلامية أخرى بديلاً عن الحروف

وتراكيب الجمل، مادة أخذة، تبثها وأنت مغلق العينين، والفم،
لسانك طريق حلقك، تجتهد في تحويل صوتك لفكرة، مع احتفاظك
بالنسخة الأصلية لجوهر فكرتك في دماغك، سيكون ذلك مجهودا
مستمرا لا نهاية له، على أية حال، يمكنك تكرار التجربة من جديد،
ولكن بشكل مختلف.

(6)

كنتُ أتفتت داخليًا وأكاد أهوى من فرط تغفيلي، أفكر طوال الوقت في المناوشات التي لم تقطع لسرقة الرأس من حوذتي، كان الليل يتسحب ويحبسني أسيرا لنفسي وتخميناتي، من يكون هذا الرجل الطيف الذي خطف الرأس متى وأعطاني بدلا منه بيضة؟ تأملتُ البيضة الحجرية مرة أخرى لعلّي أدبر معلومة تفيدني وتخرجني من خيبي. كانت البيضة تُعلن عن كلمة واحدة مكتوبة من جانبها الظاهر "الله" ومن جانبها المسحوب كُتِبَتْ كلمة واحدة ممسوح أغلبها ولا يظهر منها إلا الألف واللام فقط. رقدتُ البيضة في كفي وجرفني منحدر لم أتبين طبيعته من شدة الظلام، سقطت في مكان أشبه بوادٍ، لا زرع فيه ولا بشر، وسمعتُ أصواتا كسقوط مياه تنحدر من أعلى، غصتُ حتى ركبتي في سائل أشبه بزيت، بعد قليل سمعتُ أصواتا متداخلة، كنتُ أحاول صحصحة ذاكرتي وإنعاش دماغي فقدر استطاعتي، في هذه الأثناء تعمّدتُ أن أقرص نفسي مرات لأتأكد ألي في صحو ومستول عن تصرفاتي، أشعر الآن بأن عقلي كالعجين، تفتتُ شدراته ولم يعد لخطوطه لون ولا شكل، كأن أفكارى تعرّضتُ لقعر صندوق مليء بالمرايا الصغيرة، بداخله يمكن للجدول أن يكون

فهما ويمكن للحصوة أن تصير جبلا ويمكن للعطسة أن تحدث زلزالا
كذلك رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء يتكاثر في ملح البصر،
حفز من هم على شاكلته لكي يطاردوني، وبدون تفكير نفذوا الأوامر
الصادرة من كوخ أبيض بعيد، ماذا يريدون متى؟ لقد غفلني الرجل
وحصل على الرأس، أين ذهب به؟ هل رمى رأس أبي في هذه البركة
الزيتية؟

تحرك الزيت بلا صوت، بصمت مطبق، ولكن حناجرهم أصدرت
زججرة:

— أيها الجاحد، فيم كنت تستخدم الرأس؟

—

— لا ترد. أقل شيء يمكن أن تفعله ألا ترد. ولكن نحن سنرد.

اقتربت مجموعة كبيرة من رجال أقوياء، يحملون رجلا على محفة
من الأغصان واللباد، ولما أصبحوا بجوارى قال متقدم الموكب:

— وصل كبيرنا.

نزل من فوق المحفة رجل لا تظهر عليه علامات الوجهة، قصير
وله شارب محتط فوق شفته، منكباه سمينان، وجلبابه نظيف. اقترب
وهو يضيق عينيه في تفحص مريب، ثم أمر من كانوا يحملونه بأن
يوضحوا له لوني، اقترب متى الرجل الذي تلقى الأوامر، كاد يدخل
في حلقي، لفّ حولي لفّة دائرية كاملة، كمن يعاين عبدا في العصور
الوسطى، قال وهو يرفع يده أمام وجهه كدرع:

— أحمر لونه أحمر

أزاح الرجل المحمول الرجل المأمور وأطال إلى النظر، تفحص وزغر وقال لمن حوله:

- حسنا. فهو ليس أبيض.

ثم خصّني وهو يردف:

- ليلتك طيبة. فأنا لا يمكنني أن أرى إلا لونين فقط. الأبيض والأحمر.

كانوا كلّهم متشابهون حد التطابق، تميّزهم ابتسامة هازئة من كل شيء، تصوّرت أنّهم من نسل شخص واحد، قفزوا بالقرب منّي، لم يعد يفصلنا سوى خطوات قليلة، لم أعرف ماذا يريدون، كانوا كالعملة التي ولّى زمنها، يلمعون في الظلام كأسمك فضية طافية. خطّ طائر غريب الشكل على مؤخرة أحدهم وظل ينقرها قبل أن يفيق الرجل ويهشّ عليه، ولما طار قال أحدهم:

- اثبت يا رجل.

انته صاحبهم منقور المؤخرة وظل يصيح:

- لو حُزّت هذا الرأس مرّة أخرى سنطبّق عليك العقوبات المنصوصة كما هي. هه. بخذافيرها.

أمرهم كبيرهم بالاتجاه نحوي ففعلوا، نظرتُ في كفيّ فلم أجد إلاّ البيضة الحجرية، قلبتها على كل الجوانب وهوشتهم بها مرارا، كانوا يرمشون بخوف غريزي ولكنهم يتبعونني بإصرار غريب، وأنا أغوص

في السائل اللزج كلما انزلت إلى المنحدر، غطى الزيت الأسود مساحات كبيرة من جسدى حتى وصل لصرتى، بعد خطوات قليلة في اتجاه الهروب منهم وصل السائل لصدري، وهُنا شعرتُ بأن نفسى يغيب ويصعب على سحب الشهيق، أحسستُ بأن إناء معدنيًا ثقيلًا ينكس لوق رأسى، قلّ ركضى حتى خَفَتَ تمامًا وتسمّرتُ في مكانى، فاقتربوا منى وكانوا كثرًا، نظروا عاليًا إلى السماء، بينما الأرض حافلة بمعجائب الأشياء. بركة لزجة بها سائل أسود. حولها أناس لا أعرف ماذا يريدون منى. وعلى مدد الشوف نظرتُ، وقلت:

- أرى أصدافًا وأشجارًا وأزهارًا وكواكب سيارًا الملح منها ذبولا رمادية بارقة.

نظر أحدهم إلى وقال:

- أشجار وأزهار. يبدو أنك خُزت الرأس لمدة طويلة حتى أصبح ذلك يشكل خطورة كبيرة عليك؟

- ماذا تقصد؟

- أنا لا أسألك في صهر المعادن حتى تتغاي.

وقبل أن أشغل نفسى بالبحث عن إجابة كانت الأرض تنسحب من تحت قدمى ببطء، ومُحدّثى يتقدّم موكبه ناحيتى، انقلبت الوجوه وصارت الرعوس لأسفل، وصرتُ أبحث عن لغة أحدثهم بها، كان عقلى يحتاج إلى طاقة كبيرة ليستوعب ما يحدث من حولى. رأيتُ الرجل صاحب اللحية البيضاء منتشياً، والناس في الأسفل ينتظرون

أى رد فعل من قاندهم، كنتُ أغوص في السائل الأسود، لم يعد بإمكانى التحكم في قدمى هائياً، وكان جسدى يتلوى برفق، حتى شعرتُ به يسبح، يطير، يميل موروباً حتى اختلطت أشكال الناس وأحجامهم أمامى، كان من الصعب علىّ تحديد أى هيئة أو حركة بشكل دقيق، في هذه الأثناء كان السائل قد وصل لعنقى، لم يبق طافياً منى إلا الرأس، اقتربوا منى وأوثقونى بالحبال، وهُنا أشار الرجل صاحب اللحية البيضاء لمريديه بإصبعيه وقال:

- اتركوا ما اختفى منه. أنا لا أريد غير هذا.

وانتصبت ذراعه نحو رأسى.

* * *

أنت لم تستيقظ بعد، لم يُرد إليك وعيك بشكل كامل، تتحسس رأسك وتهرش بين فخذيك، عينك كأنها قطعة رصاص مصبوبة في تجويف جمجمتك، تشعر بعين واحدة، جافة كأنها مُشربة بالجبس، وبطنك، بطنك متجمد ومكتوم كمادة تمن تحت كثافة ضاغطة، ورأسك ثقيل كحجر، هل أصبحت بناء في صرح ماء، أنت لم تستيقظ بعد، أنت في غيبوبة مؤقتة، مؤقتة، ستتعافى بعدها، ربما، لا تشعر بوجودك، أنت مجرد ربما، لك كف واحدة تُروّح الهواء، كف في نفس اتجاه العين، مشطور أنت، تختلط في أذنك الأصوات، أذن واحدة أيضاً، لا يمكنك تمييز المسهسة القرية من الصراخ البعيد، وضوء كأنه قشر سمك زجاجى يتناثر في فضاء الغرفة، أى غرفة؟ بالكاد رفعت جفنا واحداً، ولم تر شيئاً، فخذاك باردان، وما بينهما

ميت، مات وحده، أما نَحْكَ، فهو خامل بأفكاره البعيدة، تتلاحق فيه التراكيب والجُمَل، لو فقط في السابق كتبت بعض الملاحظات أثناء وجود رأسك، عندما كانت معك أَمَك وجدتك، لكنك قد استعنت بهذه المؤونة الآن، لكنت قد أفادتكَ في هذه المناهة، ولكنك لم تكتب شيئاً، لسبب ما لم تكتب، ويمكنك أن تموت دون معرفة ما مررت به أثناء حياتك، حياتك، ظاهرها واقعي وجوهرها تخيلي، تستعيد طفولتك الضائعة وأنت تمشي بجوار أبيك، تستعيد، نعم تستعيد، عندما كنت تجلس بين جدتك وأمك، بدون أب، مللت من كثرة الكلام، والآن وصلت بسبب الصمت حد الجنون، تشبه الدنيا في عينك حزمة من قش جاف، لن يشبعك مضغه بقدر ما تحرك أعواده المدبية.

بخيال مجازي، يمكن أن تشطب وجود أبيك، تلغيه من حياتك مرة أخرى، فهو بلا فائدة حقيقية تذكر، مجرد جسد، لا يهّمه أن تبحث عن أناقة أسلوبية في تعبيرك وأنت تخاطبه، ولا يعنيه كذلك لو أن الفكرة الأصلية لكلامك تلتطّخت بما ليس فيها، لماذا تحاول الآن، وأنت في هذه الحال أن تنمّق ما له علاقة بالماضي، ذهبت المرحلة العمرية ولم يعد من السهل تحسسها، لم تعد اللغة مترابطة، حيث الكلمات هي مجرد كلمات. تحاول تحليل الوقائع كما تكمن في ذهنك، لا تركض خلف الجُمَل لتعديل مسارها، تستدعيها كما هي، تستدعي واقعك كما حدث في الماضي، وتضعه كما هو في زمن آخر، ولا تلهث، فساعتك أم عقارب كفيلة وحدها بإنجاز المهمة.

(7)

بعد أن فكّوا وثاقى لم أجد حولى أى سوائل لزجة، هُئى لى بألى فى مكان أعرفه، بيت قديم له فى دماغى ذكرى حُلوة ورائحة مميّزة، ولكنه بيت عاد إلى الوراء كثيرا، تنازلت محارته عنه، وكذلك دهانه، وديكوراته، كان هُنا كومودينو، يوضع فوقه، نعم يوضع فوقه طعام وأدوية، وكانت لى جدّة، نعم جدّة، أم أمى، أين ذهبتا؟ لماذا أنا مُنصاع لهؤلاء الناس الذين يقهروننى بشتى الوسائل، وزعيمهم لا يزال واقفا عند كوخه العالى، يأمرهم وينساقون بلا تفكير، لا يردّون له مطلبا، ولا يراجعونه فيما يقول، حتى لو قال ريان يا فجّل، لقد قلت مثلا شعبيا، تقريبا مثلا شعبيا، ماذا يعنى مثل، وما المقصود بشعبى؟ وهل هذا الفجّل شيئا يؤكل؟

فرشتُ من حولى حروفي، ربّتها من جديد بما يناسب الكامن فى نفسى، بحثتُ عن ارتباطات جاهزة فى دماغى وفشلت، لم أحصل على آية معلومات، كل ما عشته قبل البوابة، وكأننى بدأتُ كل شيء على عتبتها. التفتُ حولى أشخاص اعتقد بأنّى رأيتهم من قبل. وهُئى لى بأله لم تزل لى أذن أسمع بها ما يقولون.

أمسك أحدهم برقبة عجل أحرّ سليم البنية وذبحه، وقال الرجل صاحب اللحية البيضاء أنّه لا يجب من اللحوم إلّا الرؤوس، فقدفوا له

بفرحة مجنونة رأس العجل الذى لا يزال ينبض بالحركة وعنقه يقطر
بنسائل الدم.

بعد قليل هُيى لى بأن أنفى نبت له لفتحان، وأول ما تسلل إليهما
رائحة كافور وبرسيم مهروس، ولما أيقنتُ بأنى أرى تجوّلت من حولي
بهائم كثيرة، كانت تمضغ البرسيم الوفور تلالا خضراء على مدد
الشوف، ورأيتُ رجلا يجز ياخلاص عود كافور كبيرا بمنشار مزدوج
المقبض، ويساعده فى ذلك شخص آخر. أحسستُ بطرقعة فى عظامي
توحى بأنى نمتُ مئة عام، نوما مليئا بالأحلام المتفرقة، ولكن هذا ما
كنتُ أظنه قبل أن تختفى البهائم وعود الكافور المجذوذ.

ظهر أمامي وجه رأيتُه من قبل وارتحتُ إليه، خرجتُ من كارت
أبيض واسود صغير فى حجم الكف، طلّت نفس الملامح قميم من
حولى، أمى، اقتربتُ وهى تحمل رأس أبى وتقدمه إلى، وعندما مددتُ
يدى دفعتُ الرأس حتى أقترب، قد خفّ الظلام عندما بانّت ملامح
الرأس. لم تنطق أمى بكلمة، ولم تحاول، كانت مبتسمة طوال الوقت،
وكأنها حصلتُ على هدية مهمة ممتدة الأثر والمفعول، وعندما لمستُ
يدى رأس أبى المستكين اقترب منى طفل لا أعرفه، أشارت أمى إليه ثم
اختفت، مددتُ يدى فتجاوب الطفل ومد يده هو الآخر، لما
تشابكتُ الأيدى وعاد الرأس لحوذتى وجدتُ قدمي تمشى فى اتجاه
الطفل، كان يُشبهنى وأنا صغير إلى حد كبير، ومثلى يلبس ساعة قديمة
بعقارب، ولكنها صغيرة وتناسب يد طفل، عقاربها متأخرة قليلا عن
ساعتي، أين ساعتي؟ لا بد فقدتها فى بركة السائل الزجج. أو فى معركة

صاحب الجمل، هل دخلتُ في معركة معه من الأصل؟ كل ما أتذكره أن صاحب الجمل كان ينقل معلومات لمدير المستشفى والحراس مقابل أجر كبير، وعندما عرفتُ ذلك تمنتُ أن أحطم رأسه وأجعل لحيته البيضاء تشخب من دمه، ولكني لا أتذكر، هل وقف الأمر عند التمني أم أكنى تجاوزتُ ذلك وفعلتُ ما أتمناه؟

لما نشطت خطواتي وأنا أسحب معي رفيقي، الطفل، رأيتهم علينا يهجمون، طلوع النهار أظهر ملامحهم على حقيقتها، كانوا بشرا مثلي ومثل الطفل تماما، ملامحهم ثابتة على قسوتها، ولجأة قرروا مطاردتنا حتى النفس الأخير، قفزتُ والطفل في يدي فوق كل ما قابلنا، أكاداس الركام والجثث الملقاة والأشجار المقروطة، كان الطفل خفيفا كالريشة، شعرتُ بأنني لا أصطحب إلا نفسي، لما أسرعنا الخطى سبقناهم بمسافات شاسعة حتى اختفوا عن أنظارنا، رأيتُ المدينة أمامي خامدة، كأن كوكبا سقط فوق كل كائناهما مرة واحدة، أو جرفتها أحداث قرن كامل من التناحر.

أخذني الطفل من يدي، سحبنى فوق الركام والخراب، كانت الجثث تن تحت وطء أقدامنا، تنقوس عظامها وتطرقع. فسألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى البستان.

-

- صدقني. خلف كل هذا الدمار بستان.

انسقتُ خلف خطواته، عبرتُ فوق الجثث، كان الطفل خفيفا جدا، في وزن ساعة قديمة بعقارب، لم تشعر الأبدان الهامدة تحت الأرض بمرور كائن فوقها، ولم يكن شيء يجعلني أصدق أن هناك بستانا حقيقيا إلا ورقة شجر كانت عالقة فوق كتفه.

* * *

وترى أمك مجعدة كريشة ضربتها الريح، وقفت صامتة لفترة، تمسك في يدها صبيا صغيرا يشبهك، أعطتك إياه ثم قالت وهي تشير إليه:

- لكل مدينة قمر غير الذى فى السماء.

اقتربوا منكما، لحاهم تلمع على ضوء القمر، شيرا أو يزيد وبلون قشرة الرمان، قال أحدهم وهو يمسك على لحيته:

- ألا تستحي؟ تأتي بأمك إلى هنا، بنفسك. أمك. إلى هنا

اقتربت منك أمك وقالت بصوت مرتفع:

لا تصدقهم. إذا ألم شخص ما بشدة على رفض شيء فاعلم أنه يريد.

ثم وضعت يدها على الطفل الصغير الذى يشبهك وقالت:

هم لا يريدون القمر. هم يريدون قمرهم.

انعكس ضوء القمر على الرجل فزاد اللون الفضى من احتقان ملامحه، صرير أسنانه يكاد يُسمع، لو وضع بين فكّيه الآن زلطة

لجرشها من شدّة الغيظ، لا تعلم على وجه الدقة ما الذى أثاره بهذا الشكل، ومن حوله يلتف مريدوه، متجهمين استعدادا لفتك قريب، أعينهم جاحظة وبعيدة عن محارها، على وجوههم تقطية كأنهم يأكلون حشرات. تقدّم رجل يتدلّى كرشه أمامه شيرين، هاج جميع مريديه وأخذوا يسبون أمك بصوت غليظ مصطنع، حجزهم كبيرهم بيديه. فأمسكت أمك بيد الطفل الذى يشبهك وانصرفت، حاول الرجل اللحاق بما فلم يتمكّن، ساعده مريدوه فلم تسعفهم حيلهم ولا أجسادهم الثقيلة. بسرعة غير ملموحة، سلّمتك أمك ذراع الطفل، وقفت وأنت تحدّق بقوة محاولا الوصول لرؤية كاملة، كنت تشبه فى وقتك حرف أ، وعندما وقف الطفل الصغير بجوارك أصبحتما كـ أ ولام، رفعت يدك لتحجى أمك فأضيفت لام أخرى، أما أمك فقد تماهت مع ضوء القمر حتى أصبحت كحرف هاء مربوطة تُتمم المشهد.

شكر واجب لـ

عماد العادلي.

إبراهيم محمد علي.

ندي عمرو.

عن الكاتب

- عمرو على العادلى

- صدر له:

(1) خبز أسود (مجموعة قصصية) دار ملامح للنشر 2008

(2) جوابات للسما (مجموعة قصصية) دار ملامح للنشر

2009

(3) فيل يتدرب على الإنسانية (كتاب ساخر) دار ملامح للنشر

2010

(4) إغواء يوسف (رواية) دار ميريت 2011

(5) حكاية يوسف إدريس (مجموعة قصصية) سلسلة كتابات

جديدة بالهيئة العامة للكتاب 2012

(6) كتالوج شندلر (رواية) دار فحضة مصر 2013

- للتواصل:

Amr_ali_adly@yahoo.com

رواية فائقة لكاتب موهوب، تستكشف - من خلال عالم كافكاوي - أعماق الوجدان الإنساني الموروث..

صنع الله إبراهيم

عبر أكثر من مستوى للسرد، تتدفق هذه الرواية، لتصوغ عالما خاصا، يطرحه عمرو العادلي، ويقدم من خلاله إضافة إبداعية جديدة، تستكمل ما أضافه خلال أعماله القصصية والروائية السابقة، خصوصا روايته الجميلة "كتالوج شندلر".

د. حسين حمودة

الزيارة

أكملت بحثي في الملامح، ربما أجد عيينين يطل منهما بريق يشبهني.. كانت أعين الراقدين متعبة ومنتفخة من تكرار النعاس، يلتصقون بأسرّتهم كأنهم أصبحوا جزءاً منها، يتأوهون كلهم باستثناء شخص واحد، رجل له بشرة شاحبة، بلون الصوف الطبيعي، يكبس في رأسه طرطورا مقلّما من القطن، يندفس ولا يظهر منه إلا عيانان صغيرتان يتوسطهما أنف كبير نسبيا؛ لا يمكنني تخيله أبي. حاولت الانتقاء قدر استطاعتي، كنت أجنح لأختار الصنف الممتاز، فعندما يكون لدينا الاختيار، نرى دائما أننا نستحق الأفضل.